

نجيب محفوظ

عجائب الأقدار

«ميسرة»



0156173

Bibliotheca Alexandrina

892

دار الشروق

نجيب محفوظ

عَبَائِبُ الْأَقْدَارِ

«مَيْسَرَة»

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للأطفال ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .

محمد
المعالم

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٤٨١٤

بريكا : شروق - لكس : 03001 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٩٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بريكا : ناشروق - لكس : SHROK 20175 LE

نجيب محفوظ

عَبَائِدُ الْأَقْدَارِ
«مَيَّسَرَةٌ»

غلاف ورسم
حلمي التوفيق

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جلس صاحب العظمة الإلهية فرعون مصر ، الملك خوفو بين أبنائه ورجاله المقربين . وكان يحب هذه الجلسات العائلية ، التي تعفيه من الرسميات والتقاليد ، ويكون فيها أبا رقيقا وصديقا ودوداً . وبدأت الجلسة بالحديث عن الهرم ، الذي أراد خوفو أن يبنيه ، ليكون مقراً خالداً لجمانه بعد مماته . فأخذ المعمارى المصرى النابغة ميرلأب ، يشرح عمله المجيد ويبين عظمته .. وكان الملك يستمع إلى صديقه الفنان . غير أنه تذكر السنوات العشر التى مضت على بداية العمل ، فتململ ، وقال :

- ميرلأب العزيز .. أنا مؤمن بنبوغك .. ولكن إلى متى التأخير؟ مضت على بداية العمل عشرة أعوام ، حشدت لك فيها الملايين من الرجال الأشداء ، وعبأت لك خير الفنين من شعبي العظيم . ولم يظهر الهرم فوق الأرض للآن .

بدا الارتباك على ميرلأب ، وقال بصوته الرفيع :

- مولأى ! حاش أن أضيع الوقت أو الجهد . نحن صنعنا فى الأعوام العشرة معجزات ، تعجز عن صنعها الجبابرة والشياطين . فقطعتنا من الجبل صخوراً شاهقة ، وسويناها ، ونقلناها على السفن تشق النيل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . وشققنا فى الصخر

مجرى للماء يصل بين النيل وهضبة الأهرام .

فابتسم الملك وقاطعه مازحاً :

– عجباً .. أمرناك أن تشيد لنا هرماً فشَقَّقتْ نهرًا . هل تظن

مولاك ملكاً على الأسماك ؟

وضحك الملك ، وضحك الحاضرون إلا الأمير خعوف ولىَّ

العهد . وكان شديداً فى كلامه مع مِرْأِبْ عن التأخير فى سير البناء .

وساد الصمت لحظة ، إلى أن شاع فى الجو نغم موسيقى الحرس

الفرعونى . فلما خفت أصوات الموسيقى ، نظر فرعون إلى وزيره

خَعْمِينْ ، وسأله ، والابتسامة على شفتيه :

– هل الصبر من طبائع الملوك ؟ .

فرد الرجل بصوته الهادئ :

– مولائى ، يقول فيلسوفنا الخالد ، وزير الملك حونى : الصبر

ملجأ الإنسان من اليأس ، ودرعه ضدَّ الشدائد .

– هذا ما يقوله وزير الملك حونى .. فماذا يقول وزير الملك

خوفو ؟ .

تأهب الوزير للكلام . ولكن الأمير خعوف سبقه ، وبمحاس أمير فى

العشرين من عمره قال :

– صحيح ، الصبر فضيلة . ولكنها فضيلة لا تليق بالملوك .

ففضيلة الملوك هى القوة . القوة التى عَوَّضَتْهم بها الآلهة عن الصبر .

ودار الحديث عن الصبر والقوة والرحمة والمحبة ، ثم عاد ثانية

إلى الهرم ، وجيوش العمال الذين يعملون فيه . وقال مِرْأِبْ :

– العمال يامولائى طائفتان :

طائفة الأسرى والأغراب . وهؤلاء لا يدرون ماذا يفعلون ،

تحرّكهم العصا ، ويسوقهم الجنود .

وطائفة المصريين . وأغلبيتهم من مصر العليا . وهم أناس قوة
تحملهم شديدة ، وصبرهم على الشدائد عظيم ، وهم يعلمون ماذا
يفعلون . تؤمن قلوبهم بالعمل الذى يهبونه حياتهم راضين . فهو
عندهم واجب ديني للرب المعبود ، وطاعة للجالس على العرش
فرعون . تراهم يامولاي في وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس
المحرقة ، يضربون الصخر بسواعد قوية وعزائم فنية ، وهم ينشدون
الأغاني والأناشيد .

فانبسطت أسارير السامعين ، وسرت فيهم نشوة الفرح والفخار ،
وظهر الرضا على وجه فرعون . وقام عن أريكته وقام معه الجالسون ،
وسار في الشرفة الواسعة ، وألقى النظر بعيدا إلى الهضبة الخالدة ، يرقد
على طرفها أبو الهول العظيم . وتأمل منظر العمال ، وصفوفهم
الطويلة ، ومشهدهم الرائع . أى مجد وجلال !

وانتهت الجلسة بمفاجأة عرضها الأمير هورداديف على والده :

- أبى الملك . أستطيع أن أقدم بين يديك - لو تشاء - ساحراً
عجيباً ، يعلم الغيب ، ويأتى بالمعجزات .

نظر فرعون إلى ابنه باهتمام . وكان يسمع كثيراً عن السحرة
ومعجزاتهم ، وسأله :

- ومن هو هذا الساحر ؟

فقال الأمير :

- هو الساحر ديدى يامولاي . يبلغ من العمر مائة عام وعشرة ،
ولا يزال محتفظاً بقوة الشباب وفتوة الصبا . وله قدرة عجيبة يتحكم

بها فى الإنسان والحيوان ، ويحترق بها أستار الغيب ، ويعرف أسرار المستقبل .

ازداد اهتمام الملك ، وقال :

- هل تستطيع أن تأتى به الآن ؟ .

فقال الأمير بفرح :

- سريعا يامولاي .

ثم وقف وحيا والده بانحناءة طويلة . وذهب ليحضر الساحر العجيب .

٢

سريعا ، رجع هوردا ديف ، ومعه رجل طويل القامة عريض المنكبين ، حادّ البصر نافذ النظرات ، شعر رأسه أبيض ، ولحيته كثّة طويلة ، ويتوكأ على عصا غليظة . انحنى الأمير وقال :

- مولاي ، عبك المطيع الساحر ديدى .

فسجد الساحر أمام الملك ، وقبل الأرض بين قدميه ، ثم قال :

- مولاي ، نور الشمس ورب العالمين ، دام له المجد وحلّت به السعادة .

فأبدى له الملك عطفه ، وأجلسه على كرسي قريب منه ، وقال له :

- كيف لم أرك من قبل ، وأنت سبقتنى إلى هذه الدنيا بسبعين

عاما ؟

فأجابه الساحر المعمر :

- وهبك الرب الحياة والصحة والقوة ، إن رجلا مثلي لا يحظى بالمثل بين يديك إلا إذا دعوته .

فابتسم الملك ، ثم نظر إليه باهتمام ، وسأله :
- أحقا لك معجزات ياديدى ؟ تخضع الإنسان والحيوان لإرادتك ، وتكشف الغيب ، وتعرف المستقبل ؟
فأخى الرجل رأسه ، وأجاب :
- هذا حق وصدق يامولاي .

فقال الملك :

- أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات ياديدى .
سادت الرهبة واتسعت العيون وبدا الاهتمام على الوجوه . ولكن ديدى لم يبادر إلى عمله . بل وقف جامدا كأنما تحول إلى تمثال . ثم ابتسم ، عن أنياب حادة ، وألقى نظرة على وجوه الحاضرين ، وقال للملك :

- عن يميني من لا يؤمن بي .
دهش الحاضرون وسأل الملك :
- هل بينكم من لا يؤمن بمعجزات ديدى ؟
هز القائد أذيو رأسه وتقدم ، وقال : مولاي .
- مولاي ، أنا لا أومن بالأعيب السحر . وأرى أنها نوع من المهارة يجيدها المتفرغون لها .

فقال الملك :

- ما جدوى الكلام والرجل أمامنا ؟ هاتوا أسدا مقترسا نطلقه عليه ، ونرى كيف يروضه بسحره ويخضعه لإرادته .

— عفوا مولاي . لماذا الأسد ؟ ، هأنذا واقف بين يديه .. فليجرب
في سحره ! .

وساد صمت ثقيل ، ونظر الجميع إلى الساحر بعد هذا التحدى ،
فوجدوه هادئا ساكنا ، وابتسامة الثقة لا تفارق شفثيه ، وضحك
الملك ضحكة عالية ، وقال لأربو في لهجة لا تخلو من السخرية :
— أهانت عليك نفسك يأربو ؟ .

فقال القائد بثبات :

— إن نفسى يامولاي عزيزة على . ولكن عقلى عزيز على أيضا ،
وهو يهزأ بالأعيب السحر .

غضب الأمير هورداديف وقال للقائد :

— فليكن ماتريد . وليفضل مولاي الملك ويأذن لديدى بالرد على
هذا التحدى .

فنظر الملك إلى الساحر وقال :

— هيا أرنا سحرك فى صديقنا أربو .

نظر القائد إلى الساحر نظرة متعالية . وأراد أن يبعد وجهه عنه
باحترار . ولكنه أحس بقوة تجلبه من عينيه إلى الساحر . حاول أن
يتزع عينيه من هذه القوة ، ولكنه عجز وفشل . وثبتت عيناه على عيني
ديدى . وكانت عينا ديدى تلتمعان وتبرقان ، وغطى نورهما عيني أربو
حتى أظلمتا وغاب عنها نور الدنيا . وخارت قوى القائد الجبار فسلم
واستسلم .

ولما اطمان ديدى إلى فعل قوته الخارقة ، وقف وأشار إلى مقعده ،
وصاح بالقائد يأمره « اجلس » . وصدع القائد بالأمر ، وسار يترنح ،
وارتمى على الكرسي فى استسلام .



صدرت من أفواه الحاضرين آهات الدهشة . ونظر ديدى إلى
فرعون وقال بأدب جم :

- مولاي ، أستطيع أن آمره بما أشاء ، ولن يخالف لى أمرا . ولكنى
أشفق عليه ، فهل تقنعون بما رأيتم ؟ .

هز فرعون رأسه بالموافقة . فبادر الساحر إلى القائد المذهول ،
وجرى بأصابعه على جبهته ، وقرأ تعويذة غريبة . فأخذ القائد يفيق
رويدا رويدا حتى استعاد وعيه . ولبت زمنا كالحائر لا يدرك ما حدث .
ثم استقرت عيناه على وجه ديدى ، فتذكر ، والتهب وجهه
بالاحمرار . ومشى إلى مقعده يتعثر من القهر والحجل .

قال الملك للساحر :

- أحسنت أيها الرجل القادر . لكن هل لك سلطان على الغيب
أيضا ؟ .

- نعم يامولاي .

فقال له الملك :

- إلى متى يظل عرش مصر للملوك من ذريتي ؟ .
فبدا على الرجل القلق والتهيب . ففطن فرعون وأدرك . فأمنه على
نفسه .

فاستغرق الرجل فى صلاة حارة ، ولبت ساعة لا يتحرك ولا
يتكلم . نفذ صبر الأمير خعوف فقال له :

- لقد أعطاك فرعون الأمان على نفسك . فمالك لا تتكلم ؟ .
فكتم الرجل أنفاسه وقال للملك :

- مولاي ، لن يجلس على عرش مصر من بعدك ، أحد من
ذريتك ! .

اضطربت النفوس من قوله ، ونظروا إليه نظرات قاسية ، وقطَّب
فرعون جبينه ، واصفرَّ وجه الأمير خعوف ، وأطبق شفثيه ، وأنذرت
هيئته بالويل والهلاك .

وأراد الساحر أن يخفف من وقع نبوءته فقال :
- سوف تحكم يامولاي آمنا مطمئنا حتى نهاية عمرك الطويل
السعيد .

فهزَّ فرعون كتفيه وقال :
- دعك من تعزِّي . وخبرني ، هل تعرف من الذى تدَّخره الآلهة
ليتولى عرش مصر .
فقال الساحر :

- نعم يامولاي ، هو طفل لم ير نور الدنيا إلا صباح اليوم .
- فن أبواه ؟
- أما أبوه فهو الكاهن الأكبر لرع معبود أون . أما أمه
فهي السيدة الشابة « رده ديديت » . وقد تزوجها الكاهن على
كبر لتلد هذا الطفل ، الذى شامت الأقدار أن يكون من
الحاكمين .

قام فرعون هائجا كالأسد ، وقام لقيامه القاعدون . ودنا من
الساحر ، وقال له :
- أوافق أنت مما تقول ياديدي ؟ .

فرد الساحر بصوت مبحوح :
- لقد صارحتك يامولاي بما طالعتة فى صحف الغيب .
فقال له الملك :

٠ لا تخف ولا تحزن . لقد بلغت رسالتك . وستنال ما تستحق
من الجزاء الحسن .

وكان الأمير خعوف فى حالة هياج شديد . أما فرعون فقد كتم
غضبه ، وتحوّل إلى وزيره يسأله رأيه . ودار نقاش حسمه فرعون
وقال :

٠ أماننا طفل رضيع على بعد قليل منا . فهيا أيها القائد أعد
حملة من العربات الحربية سأقودها إلى أون .
فقال الوزير بدهشة :

٠ هل يذهب فرعون بنفسه ؟ .

فضحك الملك وقال :

٠ إذا لم أذهب للدفاع عن عرشى ، ففى أذهب ؟ ! .

٣

خرجت الحملة الفرعونية فى مائة عربة حربية ، عليها مائتا
فارس ، يتقدم صفوفهم الملك وإلى يمينه الأمير خعوف وإلى يساره
القائد أربو . وانطلقت شمالا صوب مدينة أون ، وهى تنهب الأرض
نهباً ، وتزلزل الوادى زلزالا .

وفى الطريق ، رأوا فى الأفق البعيد غبارا يملأ الجو ويحجب
الرؤية . ولما اقتربوا ، استطاعوا أن يروا مجموعة من الفرسان فوق
جيادهم ، تعدو فى الاتجاه إليهم . ولما ازدادوا قربا ، وضع لهم أنهم
بعض من الفرسان يطاردون شخصا فوق جوادٍ أمامهم . ثم فوجئوا

بأن هذا الشخص هو امرأة أنهكها التعب وخارت قواها من مطاردة الفرسان لها .

فلما رأت فرعون وجنوده صاحت تستغيث بهم . فتوقف فرعون وتوقفت العربات من ورائه ، ونظر إلى الرجال المطاردين للمرأة ، وصاح بهم :

— دعوا هذه المرأة .

ولم يعرفوا أنه فرعون ، فلم يستجيبوا لأمره . وتقدم ضابط منهم إليه ، وقال بخشونة :

— نحن قوة من حرس أون ، ننفذ أمركا هنا الأعظم . أما أنتم ، فمن أى مدينة ؟ وماذا تريدون ؟

همّ القائد أربو أن يزجره ، ولكن فرعون أشار إليه فسكت . وتنبّه فرعون إلى ذكر الكاهن ، فأراد أن يستدرج الضابط وسأله :

— ولماذا تطاردون المرأة ؟

فقال الضابط بغلظة :

— أنا لا يسألنى إلا رئيسى .

فصاح فرعون غاضبا بصوت كالرعد :

— اطلقوا سراح المرأة .

ارتعد الضابط ، وأيقن أنه أمام رئيس خطير ، فسلّ سيفه ، وأدى التحية العسكرية ، وأطلق سراح المرأة . فأسرعت إلى عربة الملك ، وارتمت تحتها ، وهى تصيح :

— أغثنى ياسيدى .. أغثنى .

نزل القائد أربو من عربته . وعرفت المرأة أنه رئيس حرس فرعون ، فقامت وقالت له بتوسل :

- بحق الآلهة ، أريد مقابلة مولانا الملك ؟ .
فسألها أريو :

- ماذا تريد من ياسيدتى ؟ .
فقلت وهى تلهث :

- فى صدرى سرّ خطير أريد أن أبوح به لذاته المعبودة .

فأرهف فرعون السمع ، وسألها أريو :

- ماهذا السر الخطير ياسيدتى ؟

- سأبوح به إلى ذاته المقدسة .

- ما اسمك وأين تقيمين ؟ .

- اسمى سرجا . وكنت إلى صباح اليوم خادمة فى قصر كاهن رع
الأكبر .

- ولماذا تركته ؟ . ولماذا كانوا يطاردونك ؟ .

- دعنى ياسيدى أصل إلى أعتاب فرعون . أريد أن أبوح له
بالسر الخطير الذى يضيق به صدرى .

ونفذ صبر فرعون ، فقال للمرأة :

- هل رزق الكاهن بطفل هذا الصباح ؟ .

فنظرت إليه فى دهشة وذهول ، وتمتمت :

- من أدراكم بهذا ياسيدى ؟ لقد تكتموا الخبر .

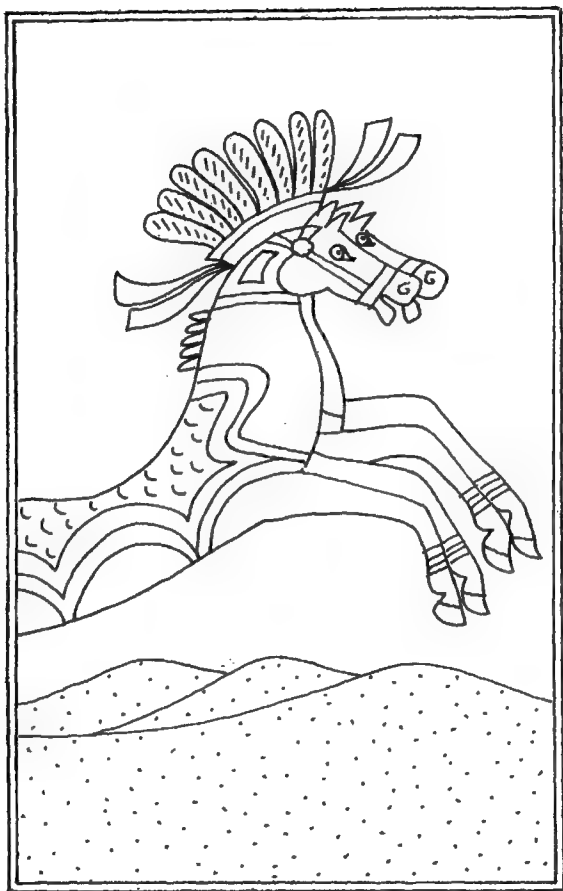
بدا الاهتمام على حاشية الملك ، وتبادلوا النظر فى صمت . فسألها

الملك بصوته المهيّب :

- هل هذا هو السر الذى تريد إبلاغه لفرعون ؟ .

- نعم ياسيدى . ولكنه ليس كل ما أريد قوله .

فقال لها فرعون بحدة :



- ماذا تريدین قوله ؟ تكلمی .

فاندفعت المرأة تقول :

- أحسّت مولاتی السیلة رده دیدیت بالآلم الوضع منذ الفجر .
وكنّت وصیفتها التي تقوم بخدمتها ورعايتها . وقبیل الوضع بزمن یسير ،
دخل علينا الكاهن الأكبر ، وبارك سیدتی ، وصلى للرب رع صلاة
حارة ، ثم بشر سیدتی بأنها ستلد طفلاً ذكراً ، وأنه سوف يرث عرش
مصر المكنین . وقال لها ، وهولا یملك نفسه من الفرح ، إن تمثال الرب
المقدس زفّ إليه هذه البشری .

ومن فرحته ، لم یكن متنبها لوجودی . فلما وقع بصره علیّ ،
انقبض صدره ، وارتسم القلق علی وجهه . وللحیطة والحدّر ، قبض
علیّ وحسنی فی مخزن الحبوب .

ولكنی تمكنت من الفرار ، وامتنطیت جوادا ، وانطلقت به لأبلغ
الملك ما سمعت . والظاهر أن الكاهن أحسّ بفراری ، فأرسل هؤلاء
الجنود ورائی ، ولولاكم لقادونی إلى موتی .

وكان الملك وصحابته یستمعون إلى سرجا بانتباه ودهشة ،
فتأكلت لديهم نبوءة الساحر دیدی العجیبة . وكان الأمير خعوف
أشدّهم جزعا .

وقال فرعون للمرأة :

- سوف یجزيك فرعون عن إخلاصك خیر الجزاء .

ثم أمر قائده عربته بالسیر ، فانطلقت ومن ورائها العربات إلى أون .

* * *

كان كاهن رع يمشو على ركبتيه إلى جانب سرير زوجته ، ويصلي صلاة حارة . ولما أحسّت بفراغه من الصلاة ، قالت له بصوت خافت :

- سمعت أخبارا عن سرجا ؟ .

فتنهّد الرجل وقال :

- سيلحق بها الجنود بأمر الرب .

فقالت بقلق :

- مولاي ! هل تضمن لحاقهم بها ؟ .

- لا تقلق . هداني الرب إلى حيلة أخرى . ولكنى أخشى عليك ،

ألا تحتلّي الشدة ، وأنت والدّة اليوم .

فقالت بتوسل :

- افعل يازوجي ما فيه نجاة طفلنا ، ولا تُبال بضغفي ، فالأمومة

تملّئ بالقوة .

فقال الكاهن متأثرا :

- أعددت عربة لنذهبا بها إلى عمك في قرية سنكا . وجعلت في

ركن منها مكانا ترقدن فيه مع الطفل ، وجهّزت غطاء يخفيكما عن

الأنظار . وستقودها وصيفتك كاتا .

- كاتا ولدت أيضا ضحى اليوم . فناد على زايا بدلا منها .

فدهش الرجل وقال :

- أولدت كاتا ؟ على كل حال زايا لا تقل إخلاصا عنها .

ونادى على زايا . فأتت الوصيفة سريعا ، فقال لها :

- سأعهد إليك بسيدتك والطفل لتسيري بهما إلى قرية سنكا .
وعليك بالاحتراس في الطريق .

فقالت زايا بإخلاص :

- إني فداء لمولاتي وطفلها المبارك .

ووضع الرجل زوجته على لحاف ، ونقلها عليه ، هو وزايا ، إلى
العربة ، وأرقداها في مكانها بها . ثم صعد الكاهن وأتى بطفله ، الذي
كان يبكي ويصرخ ، فقبله قبله حارة ، ووضعها في حضن أمه بالعربة .
ورأى رده ديدبت تتحب فقال لها ، وقلبه يتقطع :

- ثبتي قلبك من أجل طفلنا العزيز ، ولا تدعي للخوف سييلا إلى
نفسك .

فقالت المرأة وهي تبكي :

- إنك لم تسمه بعد .

فقال وهو يتسم :

- سأسميه باسم أبي .. ددف .. ددف رع . اللهم اجعل اسمه
مباركا ، وادفع عنه كيد الكائدين .

ووضع الغطاء على العزيزين . وأقعد زايا مقعد السائق وقال لها :

- سيري على بركة الرب الحافظ .

وما أن تحركت العربة ، حتى فاضت عيناه بالدمع الغزير . وهول
إلى السلم ، وصعد بقوة شاب إلى النافذة التي تطل على الطريق .
وراقب العربة التي تحمل قلبه ووجدانه .

وفجأة ، ظهرت كتيبة فرعونية ، وأوقفت العربة .

يارب السماء ! هل نجحت سرجا في مهمتها ؟ لماذا جاء جند
فرعون ؟ هل ليقتلوا الطفل الحبيب الذي شرح الرب به صدره .

واستمر الكاهن يحدث نفسه : إن عددا من الجند يحيط بالعرة ،
 وواحدا منهم يطرح الأسئلة على زايا البائسة . ترى عمّ يسألها ؟ وبم
 تجيبه ؟ . حياة طفلي وزوجتي رهن بكلمة واحدة تنطق بها زايا .
 رباه ! يارع المعبود ، ثبت قلبها ، وأجر على لسانها كلمة الحياة لا
 الموت ، وانقذ طفلك الحبيب لتقضى قضاءك الذى بشرت به .
 وفجأة ، صاح الكاهن بفرح شديد :
 - الحمد لرع .. تركوا العرة تسير . الحمد لك أيها الرب
 الرحيم ! .



تنفّس الكاهن الصعداء ، وأحسّ لفرحه ، بجنين إلى البكاء ،
 ومشى إلى منضدة عليها إبريق من الفضة ، وصب منه ، فى كأس ،
 ماء قراحا روى به عطشه .
 وبعد قليل ، دخل عليه خادم يضطرب ، يخبره أن قوة من حرس
 الملك تحتل القصر ، وأن رئيس القوة يطلبه سريعا . فتظاهر الكاهن
 بالثبات ، ولبس العباءة المقدسة والقلنسوة الكهنوتية . وغادر حجرتة
 إلى الفناء ، ورفع يده بالتحية وقال بصوته الجليل :
 - حلّتم أهلا وسهلا يا أبنائى .. وليبارككم رع المعبود .
 فسمع صوتا مهيبا يرد عليه : الشكر لك يا كاهن رع المعبود
 فانتفض جسمه لدى سماعه هذا الصوت ، وزاغت عيناه تبحثن
 عن صاحب الصوت ، واستقرتا على قلب القوة ، فتولاه العجب

والرعب أن يأتي فرعون بذاته إلى بيته .
فأسرع إلى عربته ، وسجد بين يديه ، ورحّب به بصوت مهتّج .
رد فرعون على ترحيبه ، وأفهمه أنهم جاءوا في أمر خطير وعاجل .
فانحنى الكاهن وقال :
- رهن إشارة مولاي .
فسأله الملك :
- لماذا الآلهة تختار القراعة وتوليهم عرش مصر ؟
فقال الكاهن بثبات :
- ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد .
- أحسنت أيها الكاهن .. فهل تستطيع أن تقول لي ماذا يجب على
فرعون نحو عرشه ؟
- أن يقوم بواجباته ، ويحافظ عليه بحافظته على شرفه .
- أحسنت أيها الكاهن الفاضل . والآن خبرني ماذا ينبغي أن يفعله
فرعون لو هدّد أحد عرشه ؟
خفق قلب الكاهن ، وأيقن أنه يحكم على نفسه بجوابه . ولكنه
أبى إلا أن يقول الحق ، فقال :
- أن يبيد الطامعين .
فابتسم فرعون وقال بصوت رهيب :
- أيها الكاهن .. وجدنا الذي يهدّد العرش ..
فنكس الكاهن عينيه ، وغلبه الصمت . فاستطرد فرعون :
- وللعجب .. وجدناه طفلا ؟
- طفلا يا مولاي ؟
استبد الغضب بفرعون وصاح :

- أنتجاهل أيها الكاهن ؟ وأنت تعلم أنك أبو الطفل !
فتدفق الدم إلى وجه الكاهن ، وعصر الألم قلبه . ولم يمهل فرعون
وقال :

- وقد أقررت منذ لحظة ، أنه ينبغي لفرعون أن يهلك من يهدّد
عرشه . أليس كذلك ؟ .

- بلى يامولاي .

استمر فرعون يضغط ويضغط في مناقشته ، حتى أدرك الكاهن أن
عليه هو أن يقوم بقتل طفله .. أداء للواجب نحو عرش فرعون .
وأخذ يسأل نفسه :

- ماذا يفعل ، وفرعون وزملاؤه ينتظرون كلمته ؟ هل يلحق بطفله
العزیز ، ويغمد خنجره في قلبه ؟ رباہ .. كيف الخرج ؟ .

ووسط دوامة الحيرة والارتباك ، لمع في ذهنه خاطر سريع .. كاتا
وطفلها الذي ولدته في الضحى !! .

إنها فكرة شيطان لا كاهن . ولكن ماذا يصنع ؟ .
وأخنى الكاهن رأسه ، وذهب ليرتكب أشنع جريمة . وانتهت إليه
كاتا ، فابتسمت ابتسامة امتنان وشكر ، وظنته جاء يباركها ويبارك
طفلها ! .

دارت الأرض تحت قدميه ، وخذلته نفسه ، ووقف مذعورا .
ولكن أين المفر ؟ وكيف الخلاص ؟ وفرعون واقف بالباب .
اشتدت الحيرة بالكاهن ، حتى أذهلته عن وعيه ، فزأر زئيرا
مخيفا ، واستل خنجرا وطعن به نفسه ، فسقط على الأرض جثة
هامدة .

ودخل الملك الحجرة يتبعه رجاله ، وجعلوا ينظرون مشدوهين إلى

جثة الكاهن وإلى المرأة الوالدة الفزعة . أما الأمير خعوف فقد خشي ضياع الفرصة ، فاستل سيفه وهوى به على الطفل . فأدركت الأم بغريزتها غرضه ، فألقت بسرعة البرق نفسها على طفلها . فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة واحدة .

نظر الملك إلى ابنه ، وغلبها وجوم شديد ، لم يخرجها منه إلا الوزير خعمين إذ قال :

- مولاي ، لنغادرُ هذا المكان الدامي !

وخرجوا جميعا وهم سكوت !

٦

سارت العربة تقودها زايا . ولم تستطع زايا أن تنسى إحاطة الجند بها ، وأسألهم لها . ولولا ثباتها ورباطة جأشها ما تركوها تسير بسلام . وآه لو عرفوا مَنْ تحملهم عربتها !

ونظرت إلى الوراء ، لترى سيدتها نائمة وطفلها بحضنها . يالها من نومة بشعة لسيدة وَلَدَت اليوم . ولكن ما أحلى الأمومة رغم نومتها هذه . ليبتها هي تذوق الأمومة ، ولو مرة واحدة ، وتدفع حياتها ثمنا لها .

فزايا كانت عاقرا . وكم تمنّت على الآلهة طفلا . وكم استشارت الأطباء ، وسألت السحرة ، ولجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى . وكان زوجها كاردا شديد الحزن ، فالعمر يتقدم به ، دون غلام له يحبوفى داره . وآخر مرة ، وهو يغادر إلى منف ، حيث يشتغل



فى بناء الأهرام ، أنذرهما بالزواج من غيرها إذا لم تلد له طفلا .
« رياه ! لا الرب يرحم ، ولا الطب ينفع ، ولا كاردا يعذر ! .
آه .. لو كان لى مثل هذا الطفل ! » .

وسرحت زايا فى التفكير ، إلى أن رأت نفسها تسير بهذا الطفل إلى
كاردا ، وتقول له « لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل » . ورأت
زوجها يطير من الفرح ويحتضن ددف الصغير ، ويقبله ويقبلها !
بالسعادة والفرحة ! .

ولما أفاقت زايا ، وفتحت عينها ، تذكرت العربة والسيدة وطفلها
الوليد ددف ، وحلمها الطويل بعد أن غلبها سلطان النوم .
ولكن أين هى ؟ وفى أية ساعة من الليل ؟ .

ونظرت فيما حولها ، فرأت فضاء مظلم ، وأدركت أن الثورين ضلّا
بالعربة الطريق ، وأن المكان حولها خال من الحياة . فأنكشت مرتجفة
مدعورة .

وخيل إليها أنها ترى فى الظلام أشباح قافلة من البدو . فتذكرت
ما يروى عن البدو ، وخطفهم للتائهين ، وقطعهم الطريق على
القوافل . وأدركت أن العربة بالثورين والمرأتين ، ستكون غنيمة ثمينة
لهم ، تغريهم بالخطف والاستيلاء . فاشتد بها الخوف ، وجنّ جنونها .
فقفزت من مقعدها ، واتجه نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها . وبلا
وعى ، مدت يديها إلى الطفل ، ورفعتة بحفّة ، وأحكمت اللفة حوله ،
وأطلقت ساقها للريح صوب أنوار المدينة .. تهرب بالطفل .. بعد أن
خطفته من أمه ! .

خيل إليها وهى تعدو ، أنها سمعت صوتا ينادى عليها بفزع . ظنته
صوت سيدتها ، وقد أحاط البدو بها . فازداد بها الرعب ، وضاعفت

سرعة عدوها ، وظلّت على سرعتها إلى أن استهلكت قوتها الجنونية ،
فهذأت من سرعتها ، وثقلت خطاها ، وارتمت على ركبتيها وهي تلهث
بعنف وشدة . وكانت لا تزال مذعورة مجنونة ، تتلفت يمنة ويسرة ،
لا تدري أين الهلاك وأين النجاة .

وخيل إليها أنها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل . وبدأت في
الظلمة أشباح راكبين آتين من الشمال . ولم تدرك إن كانوا من البدو أم
لا . ولم تستطع الاختفاء لأن ددفا علا صوته بالصراخ والعيول .
فأسلمت نفسها للمقادير ، واستغاثت بالراكبين . فأنى الركب
سريعا ، وسمعت صوتا يسأل من المستغيث . خيل إليها أنه ليس غريبا
عنها ، ولكن الحذر مطلوب ، فغيّرت نبرة صوتها وقالت بلهجة
ريفية ، إنها امرأة ضلت الطريق ، ولحقها الظلام ، وتخشى على طفلها
من برد الليل الشديد .

وسألها صاحب الصوت :

- إلى أين تقصدين ؟ .

وبدأت تطمئن إلى أنهم جنود مصريون وليسوا بدوا . فقالت إنها
تقصد منف . فضحك الرجل متعجبا :

- منف ياسيدة . ألا تعلمين أنها بعيدة ؟ .

- الأوفق أن يعود بها جندي إلى بلدتها .

فقال الرجل الأول :

- كلا يا خعمين .. بل سنحملها معنا إلى منف .

واتجه إلى المرأة وسألها :

- ومن لك في منف ؟ .

- زوجي كاردا ، يشتغل في بناء هرم مولانا فرعون .

— مرحبا بك في ركبنا .

وصدع خَعْمِينَ بأمر مولاه ، فترل من عربته ، وذهب إلى السيدة وعاونها على القيام ، وسار إلى أقرب عربة ، وأركبها وطفلها ، ووصى عليها جندي العربة .
وأمر فرعون قائد عربته بالمسير . فانطلق الركب صوب منف ..
يشق أجواز الظلماء .

٧

وصلت زايا إلى منف عند منتصف الليل . وقد نفحها الملك بقطعتين من الذهب ، فسجدت بين يديه شاكرة . وودّعته في ظلمة الليل دون أن ترى وجهه ، فلم تعرفه . وحسبته واحدا من القواد . وكانت زايا في حالة بائسة من الإرهاق والفرع . وبحث عن فندق متواضع ، تبیت فيه بقية ليلتها . ودخلت الحجرة التي أعطوها لها . ووجدت نفسها والطفل وحدهما ، فتنهدت تنهيدة عميقة وهي ترمي على السرير . ومضت تتقلب على فراشها ، تؤرقها أشباح فعلتها ، وذاقَت مر العذاب والخوف إلى أن جاءها النوم .
واستيقظت على بكاء الطفل ، وكانت أشعة الشمس تنفذ إلى الحجرة . فقبّلت فمه بحنان ، وهزّته بلطف ، وطلبت من خادمة الفندق زجاجة لبن ماعز لتغذي به .
ثم حملته بين ذراعيها ، ومشّت به في الحجرة ذهابا وإيابا ، ثم

صاحت بفرح : تبسم ياددفع . تبسم وافرح ، فسرى والدك .
وتنهت وقالت لنفسها :

- ترى : هل سأفوز به ، بعد أن انتهى أمر أمه وأبيه ؟ فالبدو لابد
خطفوا أمه ، وجنود فرعون لاشك قتلوا أباه . وما كنت أستطيع فعل
شيء لإنقاذ أمه . هل كنت أستطيع ؟ لا ..

أعجبها الفكرة ، وارتاحت لها ، وأخذت ترددها . بل زادت
عليها : إنها أحسنت صنعا بالهرب ، وأحسنت صنعا بخطف الطفل .
فلم يكن من الرحمة أن تتركه في حضن أمه ليقتله البدو . فحسناً
فعلت . وليس لها أن تحزن . أراحها هذا التفكير . ووصلت به إلى
أنها أصبحت أم ددفع دون شريك ، وكاردا أبوه . فأخذت تهزهزه
وتغنى : ددفع بن كاردا .. ددفع بن زايا .

وخرجت من الفلق ، واستأجرت عربة ذات جوادين إلى سطح
الهضبة ، لتفاجئ كاردا . سوف تذهله المفاجأة . سوف يقول لها وهو لا
يملك نفسه من الفرح : « وأخيراً .. ولدت يا زايا ! صحيح هذا
طفلي ؟ تعالى إلى .. تعالى .. » فتقول وهي ترفع رأسها بكبرياء « خذ
طفلك يا كاردا ، وقبل قدمه الصغيرة .. واسجد شكراً للرب رع . إنه
ذكر . وقد سميت ددفع » .

ووصلت إلى مكتب التفتيش ، بعد أن مرت بمعبد أوزوريس
ومتثال أبي الهول . وشاهدت النهر الذي شقّه العمال ليصل الهضبة
بالنيل ، تحتازه المراكب الضخمة تحمل الصخور الجبارة .

- ماذا تريدان يا امرأة ؟ .

- جئت أبحث عن زوجي ياسيدى .

- ومن زوجك ؟ .

- عامل ياسيدى .
 وضرب المفتش على المكتب بيده ، وقال بحدة :
 - وما الداعى إلى تعطيله عن عمله ، وإغلاقنا ؟ .
 ذعرت زايا ، ولم تستطع أن تجيب . ونظر الرجل إلى الطفل الذى
 تحمله ، فرّق قلبه ، وسألها :
 - هل جئت تبشّرينه بهذا المولود ؟ .
 تورّد خداهما ، وظهر الحياء على وجهها . فابتسم الرجل وسألها :
 - ما اسم زوجك ، ومن أى بلد هو ياسيدة ؟ .
 - اسمه كاردا بن عن ، من أون ، ومسقط رأسه طيبة ..
 ياسيدى .

ونادى المفتش كاتباً ، وأمره بأن يبحث عن الاسم بين الدفاتر .
 وبعد قليل عاد الكاتب إلى رئيسه ، ومال على أذنه ، وهمس إليه ،
 ورجع إلى عمله . نظر المفتش إلى وجه المرأة طويلاً ، ثم قال بصوت
 خافت :
 - آسف ياسيدنى . عزاء لك فى زوجك . مات فى ميدان العمل
 والواجب .

انطلقت منها صرخة رعب وفزع . وظلت فترة ذاهلة . ثم سألت
 المفتش بتوسل أليم :

- أحقا ، ياسيدى ، مات زوجى كاردا بن عن ؟ .
 - تشجّعى ياسيدة .. هذه إرادة الآلهة ! .
 فأجهشت زايا فى البكاء ، ثم عادت تسأل :
 - ألا يجوز ياسيدى أن يكون الميت شخصا آخر يحمل اسم
 زوجى ؟ .

- للأسف ، كاردا بن عن هو العامل. الوحيد الذى استشهد من
عمال أون .
- يالسوء حظى ياسيدى .. لماذا تصوب الأقدار سهمها إلى
صدرى .. الضعيف ؟ .
- هدثى روعك .
- ليس لى رجل سواه ياسيدى .
- اطمننى ياسيدتى . فرعون لا ينسى رعاياه . لقد أمر ببناء بيوت
لأسر العمال الذين يموتون فى أثناء العمل ، وقرر لهم إعانات شهرية .
هل لك أبناء آخرون ؟ .
- ليس لى فى الدنيا غير هذا الطفل .
- إذن سقيمآن فى حجرة نظيفة . والإعانة كافية لكما .
وغادرت زايا مكتب مفتش الهرم ، أرملةً بائسة ، تندب زوجها ،
وتتحرَّس على حظَّها .

٨

أمضت زايا أيامها الأولى فى سكنها الجديد ، لا يفارقها الحزن
والبكاء على زوجها الفقيد . وبعد عدة شهور ، أخذت تضيق بهذا
المسكن ، ونحس بأنه غير لائق بها وبابنها .
وفى أثناء تلك الشهور ، كان يزورها المفتش بشارو ، عندما كان
يبحث للتفتيش على المساكن . وأحسَّت بعطفه وطيبة قلبه . وانتهزت

فرصة حضوره مرة ، وشكت له من الإقامة في هذا المسكن ، وقالت له :

- لعلى أكون ذات منفعة في غير هذا المكان ياسيدى . فقد خدمت طويلا في قصر أحد أغنياء أون . وعندى خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات .

نظر الرجل ملياً إليها ، فتنين حسنها وجمال جسمها ، وعينها العسليتين ، فقال :

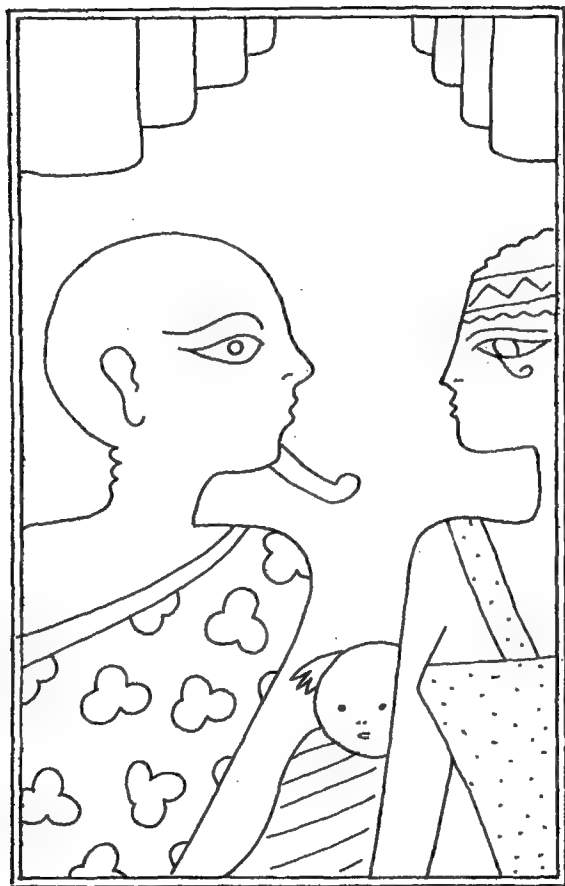
- فهمت .. فهمت يا زايا . ليس ما تشكين منه هو العطلة أو الخمول .. إنما أنت ألفتِ نعيم القصور ، وحياتها . فابترست في رقة ، وكشفت بذكاء عن وجه ددف الجميل ، وقالت :

- هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن ؟ . فقال المفتش :

- كلا .. ولا بك يا زايا ! .

فاحمر وجهها ، وأسبلت عينها . فقال الرجل :

- عندى القصر الذى تودين يا زايا . لقد ماتت زوجتى وتركت لى ابنين صغيرين . وعندى أربع جوار ، فهل تكونين الخامسة ؟ . سعلت زايا بهذا العرض ، وانتقلت وطفلها ددف للعمل عند مفتش الهرم في قصره الجميل المطل على النيل . كان القصر بدون رية بيت تحسن تدبيره . وكان ابنا المفتش الصغيران ، خنى ونافا ، لا يجدان من يحسن رعايتهما . فكانت الفرصة مواتية لزايا ، ففتانت بخبرتها وذكائها ، وأحسنست تدبير أمور القصر ، وغمرت خنى ونافا برعايتها وحبها وحنانها ، فأحباها حباً جمّاً ، وتعلقا بها كأمّ لها ،



فتزوجها بشارو . وهكذا ابتسم الحظ لزايا ، وأصبحت زوجة لبشارو
مفتش الحرم العام ، وسيدة لقصره ، وأماً لابنيه الصغيرين العزيزين
فضلا عن طفلها الوليد ددف .

٩

تمتع ددف بطفولة سعيدة في هذا القصر الذي انتقل إليه . وتعلم في
ختام طفولته الأولى ، كيف يقول لزايا « ماما » وأن يقول لبشارو
« بابا » . وكان الرجل يتقبلها بسرور . وكان يتفاهل بوجهه الصبوح
الجميل .

وحين بلغ الثالثة ، هجر حضن زايا ، وأخذ يحبب في الحجرة . وأتى
له المفتش بشارو بهدايا كثيرة من اللعب . فكان يعيش معها ، وينسى
نفسه ، وينسى الدنيا فيها .

وفي ذلك الحين ، وُلِدَ في القصر ، الكلب جاموركا . ففرح ددف
بمولده ، وأحبه ، وتعلق به . وكانا لا يكادان يفترقان . إذا أوى ددف
إلى سريريه ، رقد جاموركا إلى جانبه ، وإذا قعد ، جلس قبالة وسط
ذراعيه ، أو أخذ يلعب خذييه ويديه !

وفي الربيع ، كان خني ونافا يقفزان إلى الماء في بركة القصر ،
ويسبحان ويلعبان بالكرة . وكان ددف يقف إلى جانب جاموركا ،
يشاهدهما بسرور وبحسّ بغيرة . فيطلب من أمه أن يفعل مثلها . فترفعه
من تحت إبطيه ، وتغطّسه في الماء ، فيلعب بقدميه ، ويصيح فرحا
مسرورا .

وبعد اللهو واللعب ، كانوا يذهبون جميعا إلى الحديقة الصيفية ،
وتجلس زايا على الكنبه ، وحوها ددف وخنى ونافا ، وأمامهم جاموركا
باسطا ذراعيه ، فتقص زايا عليهم الحكايات الجميلة . وكانوا يستمعون
إليها بشغف شديد .

وبلغ ددف الخامسة من عمره ، وكان نافا بلغ العاشرة ، وخنى
الحادية عشرة . واختار خنى جامعة بتاح ليدرس فيها الدين والأخلاق
والعلوم السياسية . أما نافا فالتحق بمعهد خوفو للفنون الجميلة ، لأنه
كان يهوى الرسم والتصوير . وجاء الدور على ددف ليلتحق بالمدرسة
الابتدائية . وأمضى فى تعليمه الأساسى سبع سنوات . وكان متفوقا
دائما وينجح بامتياز .

وفى هذه الفترة ، توثقت المودة بينه وبين أخيه نافا . وكان يجلس
إلى جانبه وهو يرسم أو يصور ، يتابع رسومه وصوره الجميلة . وكان نافا
يملك « قلب » ددف بضحكه الذى لا ينقطع ، وبروحه المرحه ونكاته
اللطيفة . أما خنى ، فكان له أثره الكبير على « عقل » ددف ، وجعله
يحاوز المبادئ فى العلوم ويصل إلى الإلهيات والعلوم العالية . وكان
ددف يخطر خنى بالأسئلة فيجيبه خنى بصبر ، ويروى له الأساطير فى
سنّه المبكرة . وكان ددف يجلس القرفصاء مصغيا إلى أخيه ، وجاموركا
يعطيه وجهه .. بينما يعطى الأستاذ خنى وأساطيره .. ظهره ! .

* * *

بلغ بشارو الخمسين من عمره ، وظل على طيبة قلبه ، ولكنه المفتش العام لهم خوفاً . فالويل لمن يناديه باسمه فقط دون أن يذكر أنه المفتش العام ! .

وبلغت زايا الأربعين ، واحتفظت بجهاها ودكاها ، والذي يشاهدها سيدة لقصر بشارو ، لا يتخيل أنها كانت زوجة العامل كاردا ، ووصيفة السيدة رده ديديت .

وأكمل خنى تعليمه العالى ، والتحق بالدراسات العليا ، وانخرط فى سلك الكهنوت ، فقد ورث عن أمه حب الدين .

وحصل نافا على أعلى شهادة فى الرسم والتصوير ، واستأجر مكانا فى أهم شوارع منف ، ليعرض فيه لوحاته الفنية .

وكبر جاموركا ، وبلت عليه القوة والشدة ، وأصبح نباحه يحدث دويًا ، ويبعث الرعب عند القطط والثعالب والذئاب .

أما ددف ، فقد بلغ الاثني عشر عاما . وكان عليه أن يختار اتجاهه ويحدد مستقبله . ولم يحدث أن فكّر من قبل فى هذه المسألة الخطيرة . وكان خنى يحسب أنه سيتجه إلى الكهنوت ليصبح كاهنا مثله . فقد كانت أسئلة ددف له ، كثيرة ومتعمقة ، فى الكون والفلسفة . أما نافا فكان أصدق حسًا وأصحّ نظرا . فقد كان يشاهد ددف وهو يسبح ويمجى ، ويرى جسمه النامى وقدّه المشقوق ، ويتخيله وهو لابس الزى الحربى فيقول لنفسه « ياله من جندى » . وكان لنافا تأثير كبير على ددف ، للحب المتبادل بينهما ، لذلك حبّيه فى الجنديّة . وباركت زايا

هذه الاتجاه وتحتمست له ، ولم يعد يحنبها شىء فى الأعياد إلا منظر الجنود والفرسان .

أما بشارو ، فترك الحرية كاملة لددف مثلما فعل من قبل مع خنى ونافا ، و فقط عزَّ عليه .. ألا يخلفه أحد من أبنائه فى وظيفته الخطيرة .. المفتش العام لهم خوفوا ! .
واستقر رأى ددف .. واختار الجندية .

١١

حلّت ساعة الوداع عند الفجر . وقبله بشارو وهو يودعه ويقول له :
- أنت الآن طفل ياددف ، ولكنك ستكون جنديا ماهرا . إني أتنبأ بهذا ، ونبوءة بشارو خادم فرعون لا تخيب .
وقبل ددف يذى والده ، وخرج مع والده ، فوجدا خنى ونافا منتظرين فى الصالة . وضحك نافا ، وقال :
- هيا أيها الجندى الباسل . العربة فى الانتظار .
فحضته أمه وقبلته ، والدموع تنهمر من عينيها . وهبط ددف السلم بين أخويه ، وركب معها العربة ، وتحركت ، وزايا تنظر إليها من خلال دموعها .

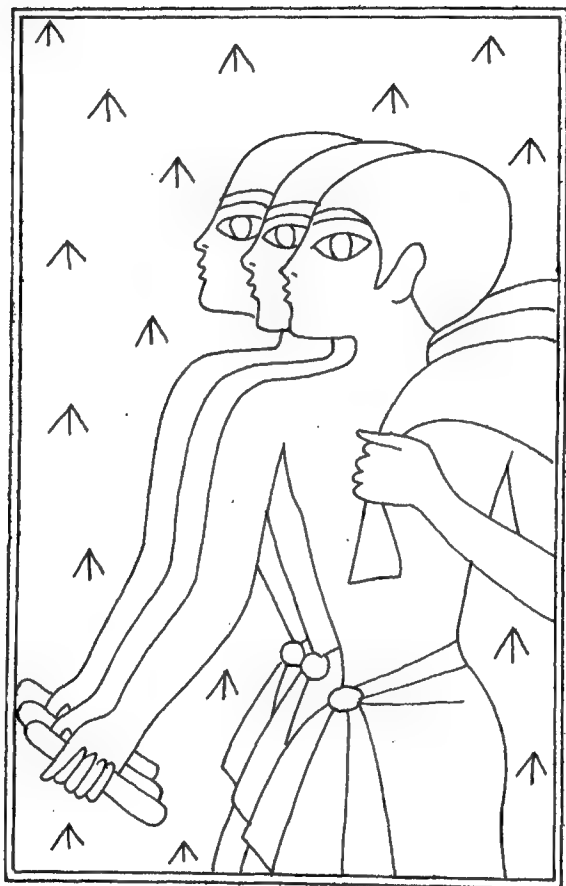
وقبل شروق الشمس ، بلغت العربة « مرعى أيبس » أجمل ضواحي منف ، حيث تقع المدرسة الحربية . وكان الميدان أمام المدرسة يزدحم بالطلبة الراغبين فى الالتحاق . ومع كل طالب منهم ، واحد أو أكثر من أقاربه .

وكان كل طالب ينتظر دوره في النداء عليه ، فيذهب للكشف .
وإما أن تقبله المدرسة فيبقى ، وإما لا تقبله .. فيعود من حيث أتى .
وجاء دور ددف ، وسمع المنادى يصيح « ددف بن بشارو » فخفق قلبه ، وسار إلى الباب الرهيب . وأدخله جندى إلى حجرة خلع الثياب . وفحصه الطبيب عضوا عضوا ، وألقى نظرة عامة على هيئته ، ثم قال للجندى «مقبول» . فارتدى ددف ثيابه وهو يود أن يقفز من الفرج . وخرج إلى فناء المدرسة ، لينضم إلى المقبولين قبله .
وانتهت عمليات الكشف والاختبار ، وظل التاجحون ينتظرون .
فجاءهم ضابط من ناحية الثكنات ، وألقى عليهم نظرة صارمة ، وصاح بهم :

- من هذه الساعة ، على كل منكم أن يودّع الفوضى وداعا ألبديا ، ويعود نفسه على النظام والطاعة . كل شيء من الآن يخضع للنظام الصارم ، بما فيه الأكل والشرب والنوم .
ورتبهم الضابط في صفين ، وسار بهم إلى الثكنات ، واستلم كل منهم ملابس الحرية ثم تفرقوا إلى عنابرهم . وأمرهم الضابط بأن يخلعوا ملابسهم المعتادة ، ويرتدوا الملابس الحربية ، وأن يخرجوا إلى الفناء عند سماعهم صوت النفير . ونفخ في النفير ، فأسرعوا إلى الفناء ، ورتبهم الضابط في صفين مستقيمين .

وحضر مدير المدرسة ، وهو ضابط كبير برتبة قائد ، في لباسه الرسمي ، يحمل النياشين والأوسمة . وخطب فيهم قائلا :

- كنتم إلى الأمس صغارا أحرارا . واليوم تبدءون حياة الرجولة الحققة . كانت أنفسكم ملكا لكم . أما اليوم فهي ملك الوطن وفرعون . واعلموا أن حياة الجندي هي القوة والتضحية . فعليكم



بالنظام والطاعة . لتقوموا بواجبكم المقدس نحو مصر وفرعون .
ثم هتف المدير باسم خوfo فرعون مصر . وردد الطلبة هتافه . ثم
أمرهم أن يشندوا نشيد « ياآلهة احفظي ابنتك المعبود ، وملكة السعيد ،
من منيع النيل إلى مصبه » .

وامتلاً جو الفناء الواسع بأصوات العصفير ، تغنى فى حماس
وجمال ، وتجمع بين الأرباب وفرعون ومصر فى نغمة واحدة .
وفى المساء ، حين رقد ددف لأول مرة على فراش غريب فى جو
جديد ، أصابه الأرق ، وتملكته الوحشة ، فتنهّد من أعماق نفسه .
وتراءت له فى ظلمة العنبرأطياف سعيدة من بيت بشارو .. زايا ، ونافا
وخنى وجاموركا .. يلحق خذه ويحييه بذيله .

ثم نام نوما عميقا ، استيقظ منه على النفير عند مطلع الفجر . قعد
فى سريره منتها ، ونظر حوله ، فرأى أقرانه يغالبون سلطان النوم
بصعوبة . وعلت أصوات التثاؤب والتنمر ، واختلط بها الضحك
أيضا .

لا راحة بعد اليوم . فقد بدأت حياة الجندية .

١٢

هبت نسمة من الفرح على قصر بشارو . وكان جاموركا يتمطى ،
وينبح ويعلوفى ممرات الحديقة . وكانوا جميعا ينتظرون . فسمعوا جلبة
فى الحديقة ، وعلا صوت خادم يقول بفرح « سيدى الصغير » . فهبت
زايا وجرت إلى نهاية الطرقة ، ورأت ددف فى بذلته البيضاء وقلنسوته

الفرعونية . ففتحت ذراعيها ، ولكن جاموركا كان أسرع منها . فهجم على سيده ، واحتضنه بيديه ، وعلا نباحه ، يشكو إليه عذاب الشوق والحنين . فأزاحت زايا الكلب جانبها ، وضمت ابنها العزيز إلى قلبها ، وأشبعته لثما وتقييلا ، وهي تقول له :

- رددت إلى الروح يابني . كم أوحشتني ، وكم هزنى الشوق إليك . عزيزي ، مالك أنحف كثيرا مما كنت . ولفحت الشمس وجهك . أنت متعب ياددف . أين مرحك ؟

وأتى نافا مع جلبته وضحكته ، وقال محييا أخاه :

- أهلا بالضابط العظيم .

فابتسم ددف ، وسار بين أمه وأخيه ، وجاموركا يرقص أمامه ويقطع عليه الطريق . واستقبله المفتش استقبالا عاطفيا ، ونظر إليه وقال :

- تغيرت يابني في هذين الشهرين . وبدت عليك الرجولة حقا . وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم . ولكن لا تأسف . سأخذلك لمشاهدته . فأننا لازلت ، ولا أزال ، مفتشا حتى أحال إلى المعاش . ولكن لماذا أنت نحيف ومتعب يابني ؟ .

فضحك ددف ، وقال ويده تعبت برأس جاموركا :

- الحياة العسكرية شديدة قاسية . ونقضى كل النهار بين الجرى والسباحة وركوب الخيل .

فقالت الأم :

- لتحفظك الآلهة يابني ! .

وسأله نافا :

- وهل ترمى الرمح وتطلق السهام ؟ .

فأخذ دد ف شرح لأخيه نظام المدرسة ، وهو مفتون بها ، ويذكر
له برامج الدراسة والتدريب فى كل سنة من سنواتها الست .
فقال نافا :

- يحدثنى قلبى بأنى سأراك قائدا كبيرا يادد ف .
وتذكر دد ف أمرا هاما :

- أين خنى ؟ .

فأخبره بشارو أن خنى انخرط فى سلك الكهنوت ، وأنهم لن يروه
قبل أربع سنوات ، فترة التجربة العظيمة .
تضايق دد ف وشعر بالشوق إلى معلمه الأول . وأخرجته زايا من
ضيقه وسأله :

- وكيف نراك بعد ذلك ؟ .

- فى أول كل شهر .

وأخذت الزيارة تتكرر كل شهر ، وتنتهى كلمح البصر . ورجع
دد ف إلى طبيعته المرحية ، وزال عن جسمه التعب ، وعادت إليه
الفتوة والقوة ، وأخذ يزداد نموا وجمالا .
ودارت عجلة الزمان . وسار دد ف بخطى واسعة نحو التفوق
وإتقان الفنون الحربية . فاكسب شهرة فى المدرسة الحربية ، لم يحصل
عليها تلميذ قبله .

* * *

سار ددف في شارع منفرد ، يلفت الأنظار ببذلته الحرية
 البيضاء ، وجسمه القارع ، وجماله الواضح . وانتهى به المسير إلى
 مدخل مرسى « نافا بن بشارو - خريج معهد خوفو للرسم والتصوير » .
 اجتاز الباب فرأى أخاه مكباً على عمله ، غير شاعر بما حوله ، فصاح
 به ضاحكاً :

- السلام عليك أيها الفنان العظيم .
 فوجئ نافا به ، فقام واقفاً ، وأقبل عليه مرحباً ، وهو يقول :
 - ددف ! باللحظ السعيد . كيف حالك ؟ هل زرت البيت ؟ .
 تعانق الأخوان ملياً ، وقال ددف ، وهو يجلس إلى كرسي قدمه
 إليه الفنان :

- نعم زرته ، ثم أتيت لك رأساً . فأنت تعلم أن مرسمك هذا هو
 جنتي المختارة .

فضحك نافا ، وفاض وجهه بالسرور ، وقال :
 - أنا سعيد بك ياددف ! وإن كنت أعجب كيف يهوى ضابط
 مثلك إلى هذا الرسم الهادئ الحالم ! أين هو من ميدان القتال
 والقلاع ؟ .

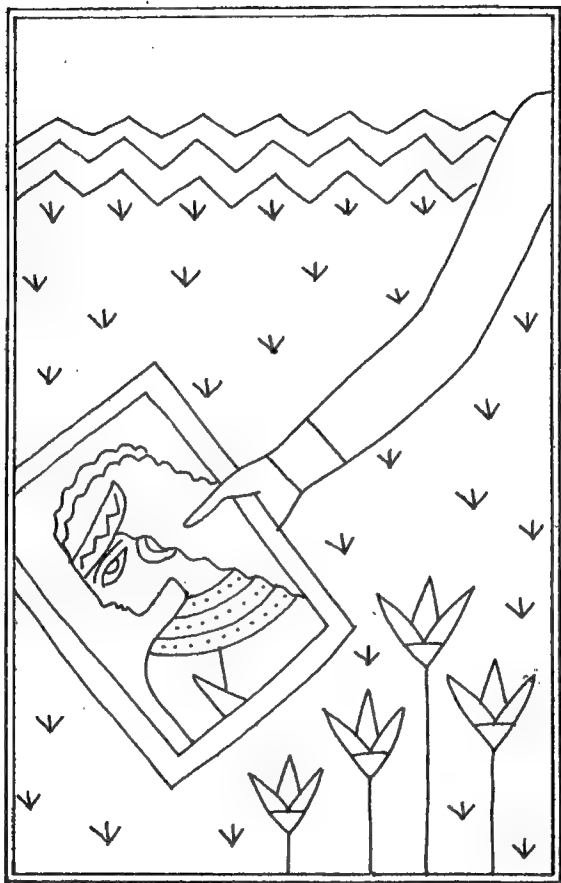
- لا تعجب يانا نافا . فأنا جندي حقاً ، ولكنك جيتني في الفن
 الجميل ، كما جيتني خني في المعرفة والحكمة .

فقال نافا في إعجاب :
 - كأنك ولي عهد المملكة . فهم يعدونه للعرش بتعليمه الحكمة
 والفن والحرب .

- فتصاعد الدم إلى وجه ددف ، وقال مبتسما :
- وأنت يعدونك لماذا ، أيها الفنان الحالم الهائم ؟ .
- فضحك نافا عاليا وقال :
- هل تصدق ياددف ، أنى سأتزوج ؟ .
- أنت يانافا .. بعد ما أغضبت والدنا ، وزهدت دائما في الزواج ؟ .
- أحبيت ياددف . أحبيت فجأة ا .
- فجأة ؟ .
- نعم كنت كطائر يحلق في السماء ، وما يشعر إلا وسهم يستقر في قلبه ، فيتهوى إلى الأرض .
- متى ، وأين ، وكيف ، ومن ؟ .
- فأخذ نافا يقصّ عليه قصة حبه ، سعيدا فرحا . وينهيها بقوله :
- ویشاء الحظ السعيد أن أوفّق في حياتي الفنية أيضا . وأقبل الكثيرون على لوحاتي ، وأعجبهم فنّها ، فاشتروها بأثمان غالية .
- واستعرض معه بعض لوحاته . ثم أشار إلى صورة معلقة وقال له :
- انظر إلى هذه الصورة الصغيرة .
- أدار ددف وجهه إليها . فرأى صورة صغيرة تمثل فلاحه صبية على شاطئ النيل عند الغروب . جذبه جمال الصورة ، فثنى إليها ، ووقف مذهولا أمامها . سر نافا كثيرا لإعجاب ددف بها ، وقال له :
- صورة غنية بالألوان والظلال . انظر إلى النيل .. والأفق .. والشفق ..
- دعني أنظر إلى الفلاحة .
- انظر إلى الحقول وإلى الزرع المائل ...

- فقال ددف وكأنه لا يسمع شيئاً مما يقوله نافا :
- ما أجمل وجهها الحمرى ! .
 - الزرع مائل من الرياح الآتية من الجنوب .
 - ما أجمل العينين السوداوين .
 - ليست الفلاحة كل شيء فى الصورة . انظر إلى الشفق ..
 - وفرك يده سرورا ، وقال :
 - رفضت فيها عشر قطع من الذهب .
 - لن تباع هذه الصورة أبدا .
 - ولماذا ؟ .
 - هى صوري ، ولو دفعت لها حياتى .
 - فضحك نافا وقال :
 - آه ياسنّ السابعة عشرة . أنتِ نار تلتهب . أنتِ خيال وأحلام .
 - أنتِ عذاب ! .
 - واحمر وجه الشاب ، وقال بتضرّع :
 - لا تفرط فى هذه الصورة يانافا .
 - فقام نافا إلى الصورة ، ورفعها من مكانها ، وقدمها إلى أخيه وهو يقول :
 - هى لك ياددف العزيز .
 - فوضعها ددف بين يديه برفق ، كأنه يمسك بقلبه ، وقال بصوته المُمْتَنّ :
 - شكرا لك يانافا .
 - واستغرق يتأمل الفلاحة . وقال :
 - كم يتفنّن الخيال ؟ .

- ليست من الخيال .
- فزلزل قلب الشاب ، وسأل برجاء :
- تعني أن صاحبها موجودة .
- نعم ! .
- وهل .. هي كصورتها ؟ .
- ربما فاقتها حسنا .
- نافا !
- فابتسم الفنان ، وسأله الشاب المفتون :
- أتعرفها ؟ .
- رأيتها مرات على شاطئ النيل .
- أين ؟ .
- شمال منف .
- هل تذهب دائما إلى هناك ؟ .
- كانت تذهب بعد العصر ، هي وصاحبات لها ، فيجلسن ويلعبن
ويخففن مع اختفاء الشمس . وكنت ألتخذ مكانى متخفيا خلف شجرة
الجميز ، وأنتظر حضورهن بفارغ الصبر .
- وهل يواظبن على الحضور ؟
- لا أدري . فقد انتهت متابعتي لهن بانتهائى من رسم الصورة .
- تُرى ، هل ما تزال تذهب إلى هناك ؟
- وما الداعي إلى تساؤلك أيها الضابط ؟ هل أصابك السهم
أيضا ؟ .
- فقطّب ددف جبينه ، وعاد يتأمل الصورة . فقال نافا :
- لا تنس أنها فلاحه .



فتمم ددف قائلًا :

- بل ملاك .. يالجلال ! .

فقال نافا ضاحكا :

- آه ياددف العزيز .. أصابني السهم ، وقادني إلى قصر كبير تقيم فيه خطيبتى . وأخشى أن يفودك سهمك إلى كوخ مهتلّم ، تقيم فيه فلاحتك الجميلة ! .

١٤

وضع ددف الصورة على صدره دون وعى . وذهب إلى شاطئ النيل ، واستأجر قاربًا اتجه به إلى الشمال . ولم يكن يدرى ماذا يفعل ! .

وراح القارب يشق الماء ، تدفعه قوة التيار وشدة الذراعين الفتيّين . وجعل ددف يرسل بناظره إلى الشاطئ ، ويبحث هنا وهناك . وكاد يئأس ، لولا أن رأى ، على بعد ، مجموعة من الفلاحات تجلسن على الشاطئ ، تاركات سيقانهن في الماء .

خفق قلبه خفقة سريعة ، واشتد ساعده ، وأسرع بالقارب حتى قرب منهن . واستطاع أن يرى وجوههن . فانطلقت من فمه صيحة خافتة . فقد رأى الفلاحة صاحبة الصورة ، تجلس على الشاطئ وسط صاحباتها .

رسا القارب قريبًا منهن . ووقف فيه ددف بقامته الفارعة ، وبذلته البيضاء الأنيقة ، وجسمه المشوق ، وجماله الفاتن . وجعل ينظر إلى

ذات الوجه الملائكى ، وبطيل النظر ، دون أن تصدر عنه حركة .
فتملكت الفلاحة الحيرة ، وأخذت تقلّب عينها فى وجوه صاحباتها ،
وهن يقلّبن أعينهن فى وجهها المشرق . وكنّ يحسبن أنه عابر وسوف
يوصل سيره ، فلما رأيته واقفاً لا يتحرك ، سجن سيقانهن من النيل ،
ولبسن صنادلهن ، واستنكرن وقفته .

قفز ددف من القارب ، وصار على بعد متر منهن ، وقال للفلاحة
بصوت رقيق منخفض :

— طاب مساؤك ، أيتها الفلاحة الجميلة .

فرمته بنظرة رافضة وفيها كبرياء . وقال له أكثر من صوت من
الجالسات معها :

— ماذا تريد أيها الشاب . امش فى حال سييلك .

فوجّه إليها نظرة عتاب ، وقال :

— ألا تردّين نخبتي ؟ .

فأدارت رأسها عنه بغضب ، وصاحت به الكثيرات :

— سر فى سييلك أيها الشاب .. نحن لا نكلّم من لا نعرفه .

فقال وهو يشير إلى الفلاحة الجميلة :

— أنا أعرفها حق المعرفة .

فردّت عليه غاضبة :

— أتفتري علىّ كذبا .

فقال الشاب :

— أبداً وحق الآلهة .. قد عرفتك قبل الآن .

فقال الجميلة غاضبة :

— كيف تزعم هذا ، وما رأيتك عيناى قبل الآن ؟ .

- وأضافت إحدى صاحباتها :
- ولا تحب أن تراك بعد الآن ! .
- وقالت أخرى بلهجة مريرة :
- وما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات ! .
- تحمل ولم يرد . ثم قال بتوسل للتي لا تتحول عيناه عن وجهها :
- صدقيني .. رأيتك قبل أن أجيء .. واستقرت آمالي فيك .
- كاذب .. عديم الحياء .
- حاشاي .. أن أكذب .
- بل أنت كاذب مدّع .
- قلت حاشاي أن أكذب .. وإليك الدليل .
- وفي اضطراب ، دبّ يده في صدره ، وأخرج الصورة ، وواجهها بها .
- نظرت الصبية إلى الصورة ، فلم تتألك أن تصبح في سخط وخوف . وامتلاّت نفوس البنات استنكارا . وهجمت عليه واحدة منهن بقتة ، تريد أن تنتزعها منه . ولكنه رفع ذراعه بالصورة سريعا ، واحتفظ بها وهو يتسم . فقالت له صاحبة الصورة ، بغضب شديد :
- ردّ إليّ هذه الصورة .
- فقال ، وعلى فمه ابتسامة حلوة :
- لن أفرط فيها ماحيت .
- فقالت له :
- أرى أنك من جنود المدرسة الحربية . ألا تعلم أن سوء أدبك هذا يعرّضك إلى أقسى العقوبات ؟ .
- إذا لم يكن القصد صادقا .

هَمَّتْ بالمسير . ولكنه حاول أن يوقفها ، وقال لها مستعظفا :
- لا أدري كيف أكتسب ثقتك ؟ .
ولمّا لم يجد نتيجة ، قال :
- ما أسوأ حظي ! .
وأخطى لها السبيل . ثم انصرف كاسفا .

١٥

مضى العام السادس والأخير لددف في المدرسة الحربية . وأقامت
المدرسة حفلتها السنوية . وفتحت أبوابها ، تستقبل المدعوين نساء
ورجالا ، من أسر المتخرجين والضباط والقواد .
وأناب الملك فرعون ، وليّ العهد لرأس الحفلة . ووصل موكب
الأمير في موعده المحدد . وكان في صحبة الأمير شقيقته الأميرة مري سى
عنخ ، وإخوته الأمراء . وانحنى الكبراء بين يدي الأمير . وسار وعلى
يمينه الأميرة ، واتخذ مجلسه في الوسط ، وجلس إلى يمينه الأميرة
والأميرات ، وإلى يساره الوزراء والقادة وكبار الموظفين .
وابتدأت الحفلة ، وصدحت الموسيقى ، وظهرت فرقة الضباط
المتخرجين تسير أربعة أربعة ، يتقدمها كبير المعلمين يحمل علم المدرسة .
وأمام وليّ العهد ، أدوا التحية العسكرية ، فرد التحية واقفا .
وبدأت المسابقات . وكان أولها سباق الخيل . وأعلن مذيع الحفلة
اسم الفارس الفائز « ددف بن بشارو » . فاستقبله الحاضرون بهتاف بلغ
عنان السماء ، ولو استمع الشاب إلى أبيه ، وهو يهتف « لابن بشارو »

بصوت كالرعد ، لما تمالك نفسه من الضحك .

وتلاه سباق العربات . فركب الضباط عرباتهم ثم انطلقوا يبعثون الرهبة ، ويتكون دويا هائلا . ويرى المشاهدون راكبا ينطلق بعربته كالسهم ، ويسبق الآخرين كالمارد . ويعلن المذيع اسم الفائز « ددف بن بشارو » فيتعالى الهتاف باسمه ، ويشند التصفيق له .

ثم أعلن المنادى عن سباق القفز على الحواجز . وأقيمت مصاطب الخشب ، وامتنى الضباط جيادهم . وجرت الخيل بعنف ، وطارت فوق الحاجز الأول ، وقفزت . على الثانى . ثم خان الحظ البعض وعجزت جيادهم ، وسقط آخرون ، إلا فارسا قفز الحواجز كلها ، وفاز فى جميعها ، وأعلن المذيع اسمه « ددف بن بشارو » بين التصفيق والهتاف العاصفين .

وكذلك كان شأنه فى باقى المسابقات . ففاز بها جميعا ، وحقق نصرا مبينا ، جعله بطل اليوم ، ونابغة المدرسة . ونال الإعجاب والتقدير من كل الحاضرين .

ثم سار فى مقدمة الفائزين ، لاستلام الجوائز من ولى العهد . وأدى التحية العسكرية له . فوضع الأمير يده فى يده ، وقال له : - أهنتك أيها الضابط الباسل ، أولا على تفوّك ، وثانيا على اختيارى لك ضابطا فى حرسى الخاص .

فغمر الفرح الشديد وجه الشاب ، وأدى التحية للأمير ، وعاد إلى مكانه منشرح الصدر سعيدا .

وبعد انتهاء توزيع الجوائز ، خطب ولى العهد ، ثم هتف الضباط للوطن وفرعون . وانتهت الحلقة ، وغادر موكب الأمير ، وانصرف المدعوون .

وكان ددف فى حالة من الذهول ، جعلته لا يحسّ بكل ما حوله .
فعندما بدأ ولىّ العهد يخطب ، تحركت عيناه إليه ، فعثرتا فى طريقها
بوجه الأميرة مرى سى عنخ . فانخلع قلبه ، وكادت قوة المفاجأة ،
تصعقه صعقا . يا إلهى ! ماذا أرى ؟ إنه وجه الفلاحة التى يحمل
صورتها . هل يمكن أن تكون فلاحته الجميلة هى الأميرة مرى سى
عنخ ؟ أمّا لو كانت هى الأميرة ، فإذا ستكون العاقبة لما حدث معها .
لم يتالك من أن يضحك ضحكة ساخرة ، وأخرج الصورة ، وأخذ
ينظر طويلا .. إليها !

١٦

باشر ددف عمله ، فى قصر صاحب السمو الفرعونى ، ولى
العهد ، الأمير خعوف . وبعد بضعة أيام ، كان يتجول فى حدائق
القصر المطلة على النيل ، والوقت بين العصر والغروب . فرأى سفينة
ملكية ترسو إلى سلم الحديقة . ولم يكن فى استقبالها أحد . فأسرع يقوم
بواجب الاستقبال . فرأى الأميرة مرى سى عنخ تمرّ به كالحلم الجميل .
وسرعان ما غابت بين أشجار الحديقة .

ألقي بنظرة إلى الأشجار ، وظلّ ملازما مكانه ، يمتّى النفس
برؤيتها مرة أخرى . فالزيارة غير رسمية ، وإلا لجرى لها استقبال يليق
بمكانها فى الأسرة الملكية . وعلى هذا ، فمُحتمل جدا ، أن تعود إلى
السفينة بمفردها . وعادت فعلا ، بعد أن ودعها ولىّ العهد عند مدخل
القصر .

وكان ددف بمكانه عند سلم الحديقة ، فوقف مستعدا . ولما صارت أمامه ، رفع السيف وأدى التحية ، وفجأة ، توقفت الأميرة ، والتفتت إليه في كبرياء ، وقالت بلهجة ساخرة :

- هل تعرف واجباتك أيها الضابط ؟ .

- نعم ، يا صاحبة السمو .

- هل منها أن تهاجم الفتيات ؟ .

فاستولى الارتباك عليه . ورمته بنظرة قاسية ، ثم قالت :

- ما قولك فيمن ينجس خلف الشجر ويصور الفتيات من غير أن

يعرفن ؟ .

ثم غيّرت لهجتها ، وقالت بشدة :

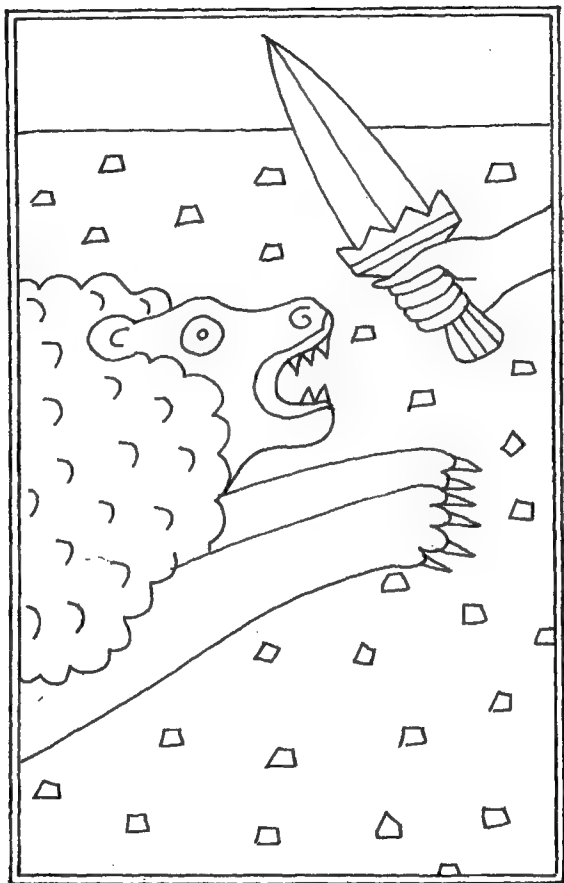
- عليك أن تعلم أني أريد هذه الصورة .

أطاع ددف ، ودسّ يده في صدره ، وأخرج الصورة ، وقدمها إلى الأميرة .

لم تكن تتوقع هذا ، وبدت عليها الدهشة . ولكنها تماكنت نفسها سريعا ، ومدت يدها ، وأخذت الصورة . وسارت إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة .

١٧

دعا وليّ العهد إلى رحلة صيد بالصحراء الشرقية . وكانت الرحلة للحفاوة بضيفه ، ابن خاله ، الأمير الشاب أبوور حاكم إحدى المقاطعات . وكان في مقدمة المدعوين الأميرة مري سى عنخ والأمراء .



ودار همس في أروقة القصر، أن الأمير الشاب جاء لخطبة الأميرة
مري سى غنخ .

وأشرف كبير الحجاب بنفسه على إعداد قافلة الصيد ، وتزويدها
بالماء والزاد والسلاح والشباك . واختار رئيس الحرس مائة جندي
لمرافقتها ، جعل على قيادتهم عشرة ضباط من بينهم ددف .
وكان الأمير خعوف ولى العهد أمهر الصيادين قاطبة . كذلك أظهر
الأمير أبورور مهارة فائقة أثارت الإعجاب :

واستمع الجميع بالرحلة . ومضى الأمراء يتبارون في لهُوهم
العنيف ، بعد أن بدأت معركة الصيد . وانقضى الوقت ساعة بعد
ساعة دون أن يحسّوا به . وكاد الصيد ينتهى فى استمتاع شامل وسرور
غامر ، لولا وقوع حادث كدّر الصفو وأفزح القلوب . إذ كان الأمير
خعوف يطارد غزالا بعيدا تحت سفح الجبل . وبينما كان يعدو بجواده
سريعا فوق ربوة عالية ، وإذا بأسد كاشر أنيابه يعترض سبيله . ولم
يكن الأمير مستغفلا لهذا اللقاء الخطر المفاجئ . وقبل أن يستلّ رمح ،
وثب الأسد وثبة عظيمة ، وضرب الجواد بيده الجبارة على وجهه .
وكان يريد فارس الجواد نفسه . وسرعان ما ثقلت أقدام الجواد ،
ونحارت قواه ، وترنّح ، وأوشك على السقوط . وتتابع الحوادث
سراعا . فكان الأسد ينكمش استعدادا لوثبة أشدّ من الأولى ، فتمكّن
الأمير من إشهار رمح ، وصوّبه نحو الأسد المتوثّب ، وقذفه بقوة . فى
هذه اللحظة ، سقط الجواد فاقد الحياة من ضربة الأسد الأولى ،
فأنخطأ الرمح الأسد ، ووقع الأمير على ظهره ، وأصبح تحت رحمة
الأسد الكاسر ، أعزل من كل سلاح .

وفى تلك الأثناء ، كان الأمراء والضباط يطلقون لجيادهم العنان

ليلحقوا الأمير المهتد . وكان دد ف يطير بجواده فى الهواء طيرا . وقد سبق الجميع إلى الأمير . وصادف وصوله ، وثوب الأسد وثبته القاضية ، فوثب من ظهر جواده المنطلق كالسهم ، شاهرا رمحہ ، وسقط كالشهاب النارى على الأسد الغاضب ، غارسا رمحہ فى فمه ، فانغرس فيه ونفذ منه ، فاهتر الأسد ، وخار ، وترنح ، ثم سقط على الأرض محتضر . ولحق الأمراء والجند ، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحتضر فقصوا عليه .

وصلت الأميرة مرى سى عنخ على ظهر جوادها . وكانت مرتاعة مذعورة . فلما رأت شقيقها واقفا سليما ، نزلت عن ظهر جوادها ، وأسرعت إليه ، وعانقته ، وحمدت الرب على نجاته . وأقبل الأمراء والجميع على ولّى العهد يهتونه بالنجاة ، وصلّوا جميعا للرب بتاح شكرا وامتنانا .

وكان الأمير خعوف ينظر إلى جواده القتل بأسف ظاهر . وسار إلى جثة الأسد الذى كاد يورده حتفه ، ثم نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالتمثال الجميل . وسرعان ماتذكرة . إنه الضابط الشاب الذى اختاره بنفسه ليكون بين ضباط حرسه . فكأن الآلهة اختارته لهذه الساعة العصبية . وأحسّ الأمير نحوه بإعجاب وامتنان . فاقترب منه . ووضع يده على كتفه ، وقال :

— أيها الضابط الباسل . لقد أنقذت حياتى من الموت المؤكد . وسأجزيك عن بطولتك التى ليس لها مثيل ، بما تستحقه .

وتقدّم الأمير أبور من دد ف ، وشدّ على يده بحرارة ، وقال :

— أيها الجندى الشجاع ، لقد أدبت للوطن والمملك خدمة فوق كل

تقدير .

كانت مفاجأة سارة للضابط ددوف ، أن يصطحبه وليّ العهد ،
ويستقبلها فرعون مصر ، بعد أيام قليلة من حادث رحلة الصيد .
وقبل الأمير يد والده العظيم ، وقال :

— هذا ، يامولاي ، هو الضابط الشجاع ددوف بن بشارو . لقد
أنقذ ، بشجاعته الفائقة ، حياتي من موت مؤكد .
فهنا الملك ددوف بشجاعته ، وأبلغه رضاه عنه . فقال ددوف
بصوت متهدج :

— مولاي صاحب الجلالة ، إني جندي من جنود فرعون . فأسمى
غاية لي أن أبذل حياتي في سبيل العرش والوطن .
وهنا ، قال وليّ العهد :
— ألتمس من مولاي الملك ، الموافقة على تعيين هذا الضابط
رئيسا لحرسى .

واتسعت عينا الشاب ، فلم يكن يتوقع هذه المفاجأة . وكان
جواب الملك أن سألته :
— ما عمرك أيها الضابط ؟

— عشرون عاما يا صاحب الجلالة .
ففهم الأمير معنى سؤال الملك ، وقال :
— الجندي الباسل يامولاي ، تعفيه شجاعته من شرط السن .
فابتسم فرعون وقال :

— لك ما تشاء يا خعوف . أنت وليّ عهدى . ورجبتك عندي
لا ترد .

فسجد ددف عند أقدام العرش ، فقال له الملك :
- أهنتك بثقة صاحب السمو الفرعونى ، أيها القائد ددف بن
بشارو .
وأقسم ددف يمين الإخلاص للملك . وأصبح قائدا من قواد
الجيش المصرى .

١٩

وبعد بضعة أيام ، دُعِيَ ددف إلى مقابلة ولىّ العهد ، لأول مرة
كقائد حرسه . كذلك كانت أول مرة يتفرد فيها بالأمير ، فطالع عن
قرب ملامح الشدة والقسوة على وجهه . وقال الأمير باهتمام :
- أنت مدعو أيها القائد ، مع قواد الجيش وحكام الأقاليم ،
للاجتماع بصاحب الجلالة الملك . وسوف يتم بحث أمر قبائل البدو
دائمة السطو على قوافل التجارة والقرى البعيدة . فالانجاء استقرّ إلى
الحرب بعد التردد الطويل . وستشهد مصر أبناءها يُحْشَدُونَ ، لا لبناء
هرم آخر ، بل لينقُضُوا على بدو الصحراء ، الذين يهدّدون أمن الوادى
السعيد .

واستطرد يقول :
- إني أتق فى بسالتك ياددف ثقة كبرى . وإني أدخر لك مفاجأة
سارة بعد إعلان الحرب .
وعاد ددف من مقابلة الأمير سعيدا . وكان يسائل نفسه ، ماذا
ستكون المفاجأة السعيدة ، والأمير قد رفعه فى غمضة عين ، من
ضابط صغير إلى قائد عظيم .

وجاء يوم الاجتماع الكبير. وأتى القواد والحكام من مصر العليا والسفلى. وشهد البهو الفرعونى رجال الدولة مجتمعين عن يمين العرش وعن يساره. فجلس الحكام صفًا ، وجلس القواد صفًا ، واتخذ الوزراء أماكنهم خلف العرش. وأعلن كبير حجاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك. فوقف الجميع ، وأدى القواد التحية العسكرية. وجلس الملك ، وأذن للحاضرين بالجلوس. واستغرق الاجتماع زمنا قليلا. ولكنه كان حاسما رهيبا. ختمه الملك بقوله :

« نحن فرعون مصر العليا والسفلى ، خوفوين الرب خنوم ، حامى النيل وسيد بلاد النوبة ، نعلن الحرب على قبائل البدو ، ونأمر بهدم حصونهم ، وتأديب رجالهم ، وسبي نسائهم. وإني آمركم أيها الحكام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم ، ويرسل كل حاكم فرقة من حامية إقليمه » .

وقام فرعون ، فقام الجميع. وهتفوا باسمه بحماس عظيم. وعاد دد فى ركاب ولى العهد. وكان الأمير مسرورا مبهتجا على غير عادته. فالشدة والقوة هى سياسته التى يؤمن بها ويسعى دائما إليها. وتذكر الشاب وعده له ، وهما الحرب أعلنت. ولكن الأمير لم يدعه يفكر ، وقال له :

— وعدتك بمفاجأة سارة. فأليك بها. لقد حصلت على موافقة والدى الملك على اختيارك قائد الجيش لهذه الحملة .



شمل مصر، من جنوبها إلى شمالها، نشاط عظيم. وكان الجنود يُحشّون في كل مكان. وكانت السفن الكبيرة تشق مياه النيل، من الشمال والجنوب، تحمل الجند والأسلحة والمؤن، قاصدة منف العظيمة. وتواصلت الاستعدادات. والقائد الشاب يعطيها كل جهده وفكره.

ولكنه، كان كلما خلا إلى نفسه، تحدث إليها :
 — غدا سيذهب للقتال. ويذهب إليه بقلب لا يخاف الموت، ونفس لا تخشى المخاطر، وروح تشوق إلى المغامرات والأهوال. ليته يحقق النصر لوطنه، ويدفع حياته ثمنا لهذا النصر. ولكن، كيف يودع الوطن، وداعا قد لا تكون منه رجعة، دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان حبه لها لعبا ولها؟ إن قلبه يشنق لرؤية قلبها، ويتألم في اشتياقه. فلا بد من رؤيتها ومحدثتها.

ولم يعرف القائد الشاب كيف يحقق هذه الأمنية. ومرت أيام الاستعداد سريعة، حتى جاء اليوم الأخير الذي سيسير الجيش في غده. فقأجأتها الآلة، وجعلت من عسره يسرا. وجاءت الأميرة تزور شقيقها زيارة من زياراتها المفاجئة. وكان الأمير قد ذهب لتفتيش الثكنات الحربية. فحفظ القائد الشاب إليها. ولم تغب الأميرة طويلا داخل القصر. فظهرت بوجهها الفتان. وأقبل عليها الشاب بجرأة لم يستطيعها إلا مرة واحدة على شاطئ النيل. وأدى لها التحية العسكرية، ثم سار في معيتها بمفرده، بعد أن تخلف كبير الحجاب عند مدخل القصر.

وكانت السفينة الفرعونية راسية إلى سلم الحديقة . فجزع وخاف أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع . ولم يعطه جمودها فرصة للكلام . ورأى المسافة تقصر ، والسفينة تقترب . فاشتد به الجزع . وطفئت عليه موجة من اللامبالاة حلت عقدة لسانه . فقال لها بصوت مهتدج :

- كم أنا سعيد يا صاحبة السمو لأنى رأيتك قبل الرحيل غدا .
فبدا عليها أنها فوجئت بقوله . وألقت إليه نظرة استغراب ،
وقالت :

- لقد وصلت أيها القائد إلى مكانة عالية . فالى أراك تغامر بها ؟
فقال باستهانة :

- المكانة العالية يا صاحبة السمو ، لا قيمة لها .. والموت أفضل .
فقالت باحتقار :

- أرى والذى قد اختار لجيشه قائدا يسيطر الموت على قلبه ،
وليس النصر والفوز ! .

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل ، وقال بإباء :
- إنى أعرف واجبى يا صاحبة السمو . وسأقوم به كما يجب على قائد
مصرى تشرف بثقة مولاه . وسأبذل حياتى ثمنا لهذا الواجب .
فهزت كنفها ، وقالت :

- الرجل الشجاع لا ينسى واجباته ، ولا يخون التقاليد .. ثم يتكلم
عن الموت .

- هذا حق يا صاحبة السمو . ولكن ما حيلتى إذا كانت التقاليد
تمسك لسانى ، فلا ييوج بما يضطرم فى قوادى . إنى ذاهب غدا .
وتمنيت أن أراك قبل ذهابى . فحققت الآلهة أمنيى . وما كان لى أن

أجحد هذا العطف الإلهي ، وأصمت وأجن .

– يحسن بك أن تتعلم فضيلة الصمت .

– بعد أن أقول كلمة واحدة ! .

– ماذا تريد أن تقول ؟ .

فبدا الهيام على وجهه الجميل ، وقال :

– أحبك يامولاتي . لقد أحبيتك حين وقع نظري عليك .. إنها

حقيقة رهيبية . ولولا قوتها الحارقة في نفسي ، ما كنت أشجع للبوح بها .. عفوا يا صاحبة السمو .

– وتسمى هذا كله كلمة واحدة ! ومع هذا ما كان أغناك عن

قولها . فأنت أشعرتني بها يوم الهجوم على شاطئ النيل .

أماجته الذكرى ، وهزه ذكرها لـ «شاطئ النيل» . فقال :

– ولكني لا أملّ ترديدها وقولها كل دقيقة من حياتي يامولاتي .

فهي أعظم ما نطق به لساني ، وأجمل ما سمعت أذني .

وكانا قد بلغا السلام الرخامية ، فتولاه الجزع ، وقال :

– أما من كلمة وداع ؟ .

فالتفتت إليه وقالت :

– استودعك الآلهة أيها القائد . سادعوبتاح العظيم ، أن يحقق على

يديك النصر لوطننا المحبوب .

ثم هبطت درجات السلم إلى السفينة في تودة ومهابة . وتركزت

ددف ينظر إليها بعينين حزيتين . ويشهد – بقلب خفاق – السفينة وهي

تبتعد عن الشاطئ رويدا رويدا ، وظلت الأميرة على سطحها لا تدخل

مقصورتها ، فعلمت عيناه بها ، حتى غابت عنه في منعطف المياه .

وعاد بخطى ثقيلة ، تتجمع في صدره ثورة جامحة . لولا أنه تعلم

فضيله يتمسك بها ، وهى ألا يخضع للانفعال أبدا ، وألا يصل به
الانفعال إلى أن يضلّ الصواب والتفكير السليم .

* * *

وأضى مساء ذلك اليوم فى بيت بشارو ليودع أهله . وحاول ما
استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح الذى عهدوه فيه . واجتمعوا
جميعا حول مائدة العشاء : بشارو وزايا وخنى ونافا وزوجته مانا .
وتوسط المائدة القائد الشاب . ومضى بشارو يتحدث بلا انقطاع .
وأحب نافا أن يحتّم تلك الليلة ختاماً سعيداً . فدعا زوجته مانا إلى
العزف على القيثارة ، وإنشاد الأغنية الجميلة « ظفرت فى الحب
والحرب » . وكانت مانا ذات صوت رخم ، وكانت عازفة ماهرة .
فلأّت جو الغرفة نغماً فاتناً وصوتاً عذبا .

واضطربت فى قلب الشاب نار موقدة ، لم تكن بنارها أحداً بين
الحاضرين سواه . وكان نافا أكثر الجميع براءة وسذاجة .
واقترّب من ددف وهمس فى أذنه :

— أبشر خيراً أيها القائد . بالأمس ظفرت فى الحب ، وستظفر غداً
فى الحرب ! .

فاستولى الذهول على ددف وقال :

— ماذا تقول يا نافا ؟ .

فابتسم الفنان ابتسامة مأكرة ، وقال :

— أنظن أنى نسيت صورة الفلاحة الجميلة . آه .. ما أجمل
فلاحات النيل . إن الواحدة منهن .. لتتمنى ضابطاً وتعلم به .. فإ
بالك لو كان هذا الضابط هو ددف الجميل الفاتن .

فقال له باستياء :

- اسكت يانا . أنت لا تدري شيئاً .

وأهاجه حديث نانا ، كما أهاجه غناء مانا . وأحس برغبة في
الفرار ، لولا أنه تذكر أمه زايا ، فوجدها تديم النظر إليه . وخشى أن
تقرأ صفحة قلبه بعينها المهمتين ، فيصيبها حزن كبير . فابتسم لها وأقبل
نحوها يخال في فرح وحبور .

٢١

طلع نور فجر الغد .

وكان القائد ددف جالسا في خيمته ، وسط معسكر الجيش ،
خارج أسوار منف ، يطلع على خريطة شبه جزيرة سيناء ، وسورها
الكبير ، والطرق الصحراوية المؤدية إليها . وكانت تسود المعسكر حركة
صاخبة . فالحيل تصهل ، والعجلات تصلصل ، والجنود تذهب
وتجىء . والجميع يلقه نور الفجر الأزرق الهادئ .

ودخل الضابط سفر على القائد ، وحياء باحترام ، وقال :

- بالباب ، رسول من صاحب السمو الفرعوني وليّ العهد ،
ويطلب الإذن بالدخول على سعادتك .

- دعه يدخل .

فغاب سفر لحظة ، ثم عاد يتقدم الرسول ، ثم غادر الحيمة .
وكان الرسول يلبس ثياب الكهنوت الواسعة التي تغطي الجسم حتى
أسفل القدمين . ويضع على رأسه قلنسوة سوداء ، ويرسل لحيته الكتّة

إلى منتصف صدره . فعجب ددف لمرآه ، إذ كان يتوقع أن يلقى وجهها مألوفا من الوجوه التي يراها عادة في قصر ولي العهد . وسمع صوتا ، خيّل إليه ، رغم خفوته ، أنه لا يسمعه لأول مرة . سمع هذا الصوت يقول :

— جئت يا صاحب السعادة في أمر خطير . فأرجو أن تأمر بإسدال الستار على الباب ، وبمنع الدخول بغير إذن .

فنظر ددف إلى الرسول نظرة خاصة ، وكان ينازعه التردد . ولكنه هز كتفيه العريضين ، ونادى سنفر ، وأمره بإسدال الستار على مدخل الخيمة ، وعدم السماح للإنسان بالدخول . وصعد سنفر بالأمر . فنظر ددف إلى الرسول وقال له :

— هات ما عندك .

ولما اطمأن الرسول إلى خلو الخيمة ، رفع عن رأسه قلنسوته السوداء ، فبدأ شعر أسود غزير سقطت خصلاته على الكتفين ، ورسمت الخصلات هالةً حول رأس جميل . ثم امتدت يد الرسول إلى لحيته فأزالها برشاقة ، وفتح عينيه ، فسطع وجهه مشرق ، يتلألأ بالنور في جو الخيمة .

ونخفق قلب ددف في صدره ، وهتف بصوت متهدج :

— مولائي مري سى عنخ ! .

خفّ إليها كالطير المذعور ، وجثا عند قدميها ، ولثم طرف ثوبها الفضفاض . وكانت الأميرة ترسل بناظرها إلى الأمام في خفر واستحياء . ثم لمست رأسه بأناملها ، وهمست بصوت خافت « قم » . فقام الشاب تلمع عيناه بنور الفرح الهيج ، وجعل يقول :

— أحقا هذا يامولائي ؟ أحقا ما أسمع ؟ وما أرى ؟ .

فنظرت إليه باستسلام ، كأنها تقول له .. غُلبت على أمرى فجئت إليك .. فقال الشاب :

- إن آفة الأفراح كلها .. تغنى في قلبى هذه الساعة .. وأنسانى غناؤها سهاد الليالى وعذاب الشهور ، وغسلت أنغامها قلبى من مرارة اليأس وظلماته .. رياه ! .. من يقول إنى أنا الذى هانت عليه الحياة بالأمس ؟ ! .

فبدا على وجهها التأثر ، وقالت بصوت خافت كتغريد البلابل :

- هل هانت عليك الحياة حقاً ؟ .

- نعم هانت . فلا قيمة لحياة بلا أمل . ولكنى يامولائى ، لم أك جباناً قط . فلبثت أودى واجبى ، رغم العذاب والألم .

فتنهلت وقالت :

- وكنت أنا أجاهد نفسى ، وأكافح كبريائى ، وألقى منها عذابا متواصلا .

- كم كنت قاسية علىّ ! .

- وكنت على نفسى أشد قسوة . منذ لقاء شاطئ النيل ، وكلما وقع نظرى عليك ، قسوت على نفسى وقسوت عليك . فعلى رأسى يقع الذنب فى كل مافات .

- فدتك نفسى من كل شر .

فابتسمت ابتسامة حلوة ، وقالت :

- أظن أن الوقت يقسو علينا هذه المرة .

فتنهَّد أسفاً ، ونظر إليها بعينين مكشبتين . فقالت بُثْ فيه روح الأمل :



- أمامنا مستقبل طويل ومشرق بالأمل . فتمنّ الحياة كما تمنيت الموت .

فقال بسعادة وابتهاج :

- لن يقدر الموت على قلبي .

فوضعت أصبعها على فمه وقالت :

- لا تقل هذا .

ولكنه قال بحماس جنوني :

- ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحب بين الخالدين .

فقالت :

- سأظل بالقصر لا أبرحه ، حتى أسمع الأبواق ترف بشرى النصر

والعودة .

- فلندع الآلهة أن تقصّر فراقنا .

- نعم سأصلي إلى بتاح . ولكن في القصر لا هنا . فلم يعد في الوقت

متسع .

ووضعت القلنسوة على رأسها ، ونظرت إليه بعينين يلتصق فيهما نور

الحب والأمل . ولكن خيّل إليها أن وجهه يكفهر ، وصدره ينقبض ،

فساورها القلق ، فسألته :

- فيم تفكر ؟

- الأمير أبوز .

فضحكت قائلة :

- هل بلغك ما تناقلته الألسن . ياعجبا !

لا يخفى شيء في مصر ، وإن كان من أسرار القصر الفرعوني . لقد

تحدث فعلا في الموضوع ، وكان الحديث سرا ومحدودا .. فاعتذرت ..
وانتهى الموضوع تماما .

فقال ددف بفرح :

- ألا يوجد في أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم ؟ أعني .. أخشى
فرعون !! .

فخفضت عينها خفرا ، وقالت :

- لن يكون أبي أول فرعون ، يباهر واحدا من أفراد شعبه
المقربين .

فأطربه جوابها ، وأسكره خفرها ، وحنث ضلوعه إليها حينئذ
موجعا ، وامتدت يده إليها ، وكانت تهم بلصق اللحية بوجهها ، وجثا
أمامها ، ولثم يدها هيمن مفتونا ، وقالت له :
- أستودعك الآلهة جميعا .

ثم ألصقت اللحية المستعارة بوجهها ، وضغطت على القلنسوة حتى
مست حافتها حاجبيها ، فعادت إلى هيئة رسول وليّ العهد . وقبل أن
تدير ظهرها ، وضعت يدها في صدرها ، وأخرجت الصورة الصغيرة
العزيزة ، التي جعلتها الأقدار سببا في هذا الغرام الجميل . وأعطته إياها
بغير كلام . فأخذها بجنون وهيام ، ولثمها بفمه ، ثم دفعها في صدره في
مكانها المعهود . وألقت عليه ابتسامة وداع . وكأنما أرادت أن
تضاحكه ، فأدت له التحية العسكرية ، وسارت في مشية الجنود إلى
الخارج .

* * *

وأعادته إلى اليقظة دخول سنفر . كل شيء على استعداد . فأمر
بالنفخ في الصور إيدانا بالرحيل . وعزفت الموسيقى ، وتحركت طليعة

الجيش . وركب ددف عربة القيادة يتولى قيادتها سنفر . وسارت العربة في الطليعة . واخترق الجيش الصحراء ، يقصد السور الذى اتخذته القبائل وكرا آمتا .

٢٢

انتهت المعركة الفاصلة ، وأتمّ الجيش انتصاراته الباهرة . فاستعرض القائد هذا الجيش المنتصر ، وسلّم على الضباط البواسل ، وهنأهم والجنود بالفوز والنجاة ، وحيّا ذكرى من سقط من الشهداء . ثم سار مع أركان حربه إلى البقعة التى دُفِن فيها الشهداء ، وبعدها إلى قتلى الأعداء ، ثم إلى حيث يقيم الأسرى ، ثم السبايا من النساء اللاتي لم يستطعن الهروب .

ووقع بصره على طائفة من السبايا تبدو عليهن مظاهر النعيم ، فسأل عنهن الضباط المشرف على حراستهن ، فقال :

- هن حريم زعماء القبائل .

وكنّ ينظرن إلى القائد بأعين جامدة ، تحقّ خلفها نارا مضطربة من الحقد والكراهية ، إلا واحدة منهن صاحبت بالقائد باللغة المصرية السليمة :

- أيها القائد .. دعنى أقرب منك .. وليباركك الرب رع .
فدهش ددف ومن معه لطلاقة لسانها ، وحسن نطقها المصرى .
وأمر القائد الضباط أن يتركها تتقدم منه . فتقدمت بخطى ثابتة ، حتى قربت من الشاب ، وانحنت أمامه فى احترام وإجلال . وكانت امرأة

فى الخمسين من عمرها ، طلعتها فيها وقار ، ووجهها يحمل أثرا لحسن
قديم أتى عليه الزمان والشقاء ، وفى قسامتها شبه عجيب من بنات
النيل .

فقال لها ددف :

- أراك تعزفين لغتنا أينما السيدة .

فتأثرت السيدة ، واغرورقت عينها بالدموع ، وقالت :

- كيف لا .. وهى لغتى التى نشأت بها ؟ أنا مصرية يامولاي .

فأخس نحوها بعطف شديد ، وسألها :

- صحيح أنت مصرية ياسيدتى ؟

- نعم يامولاي ، مصرية بنت مصريين .

- وما الذى جاء بك إلى هنا ؟

- حظى التاعس . إذ خطفنى - على أيام شبابى - هؤلاء البدو

الغلاظ الأكباد ، الذين نالوا جزاءهم على أيديكم الباسلة . وسامونى

سوء العذاب ، حتى أنقلنى زعيمهم من شرهم ، ليتلبنى بشره .

فضمنى إلى حريمه ، حيث عانيت ذل الأسر والهوان عشرين عاما .

فاشتد تأثر ددف ، وقال للمرأة البائسة :

- اليوم ينتهى أسرك . أنت أختنا فى الجنس والوطن ، فقررى عينا .

فتنهدت المرأة ، وأرادت أن تجثو عند قدميه ، ولكنه أمسك بيدها

برقة ، وقال لها :

- هدئى من روعك ياسيدتى .. من أى البلاد أنت ؟

- من أون يامولاي ، مقر الرب رع .

- لا تحزنى . لقد ابتلاك الرب بهذا الشر العظيم ، لحكمة يعلمها

هو ، ولكنه لم يتركك . ولسوف أقصّ على مولاي الملك قصبتك ،

وأضرع إليه أن يفك رقبتك ، فتعودى إلى مسقط رأسك راضية سعيدة .

وأراد أن يدخل الطمأنينة على نفسها المعذبة ، فأرسلها إلى المعسكر معززة مكرمة .

وعندما أتى المساء ، آوى الجند إلى الخيام ، يأخذون قسطا من الراحة . وجلس ددف أمام مدخل خيمته يستدفئ بالنار ، ويتأمل ما حوله بعينين حالمتين . وكانت تملق في خياله أطيايف جميلة ، لذكريات منف السعيدة وأحلامها . وبلغت به الأحلام تلك الساعة الرهيبية ، حين يقف بين يدى فرعون ، ويطلب إليه قلب أعز مخلوق إلى نفسه .. ما أجمل الحياة إذا تطورت من نصر إلى نصر ، وتنقلت من سعادة إلى سعادة ! .

ولكن .. يا للمسكينة ! تلك المرأة البائسة التى اختطفها البدو من سعادتها ، وأضاعوا شبابها ، وساموها الذل عشرين عاما . لم يستطع أن ينسى فى سعادته وفوزه ، بؤس تلك المرأة ...

٢٣

أشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء . وكانت الأعلام ترفرف على البيوت ، والميادين تموج بجموع الشعب ، والجو يضج بالأنشيد تحية لفرعون والجيش الظافر .

وفى الموعد ، حمل النسيم أنغام موسيقى الجيش المنتصر ، وبلت طلائعه ، ودوى التصفيق ، ولوّحت الأيدي بالأغصان ، وغمرت

القوم موجة من الحماس الدافق .

وكان القائد الشاب واقفاً في عربته ، سعيداً فخوراً ، ينظر إلى
جموع الشعب المتحمس ، ويرد التحيات الحارة بالتلويح بسيفه
العظيم .

وتقدم الجيش يسير إلى القصر الفرعوني . وطلع الملك والملكة إلى
الشفرة المطلّة على ميدان الشعب الكبير ، ووقفت خلفها الأميرات .
وعند اقتراب ددف من الشرفة الملكية ، جرد سيفه ، ومدّ يده
تحية ، ولفت وجهه إلى الملكين . فأنجذبت عيناه إلى العينين الفاتنتين
بين الأميرات ، وتبادلت الأعين رسالة خفق لها القلبان .

* * *

ودعى القائد ددف للعثول بين يدي فرعون . فذهب بقلب ثابت
ونفس مطمئنة . ومثل في الحضرة الملكية مرة أخرى . وقدم له الملك
الصولجان (عصا الملك) فلثمه ساجداً . ثم قدم للملك مفتاح السور
الحصين لقبائل البدو ، الذي اقتحمه الجيش ظافراً ، وقال :

« مولاي صاحب الجلالة ، فرعون مصر العليا والسفلى ، سيد
الصحراء الشرقية والصحراء الغربية ، وصاحب بلاد النوبة .

مولاي ! لقد أيدتنا الآلهة ، فضمّت إلى ملككم السعيد ملكاً
جديداً . وأدخلت في طاعتكم أفواجا كانوا عصاة طاغين ، وأقسموا
يمين الإخلاص لعرشكم العتيد » .

فقال له فرعون :

- إن فرعون يهنئك أيها القائد الظافر على إخلاصك وسالتك .
ويرجو أن تمدّ الآلهة في عمرك ليستمتع الوطن بمواهبك .

ومدّ فرعون يده للشاب ، فأنحنى يلثمها باحترام عميق ، وقلبه

يدق دقا عنيفا . وسأله عن عدد الذين استشهدوا ، والجرحى وأحواهم . ثم نظر الملك إلى ددف طويلا ، وقال :
- لقد أديت لى خدمتين جليلتين . فأنقذت بالأولى حياة لى عهدي . وأنقذت بالثانية أمن شعبي . فاذا تطلب ؟ .
رَبَاهُ ! جاءت الساعة الرهيبة التى طالما مَنى نفسه بها . وكان ددف شجاعا ، فقال :

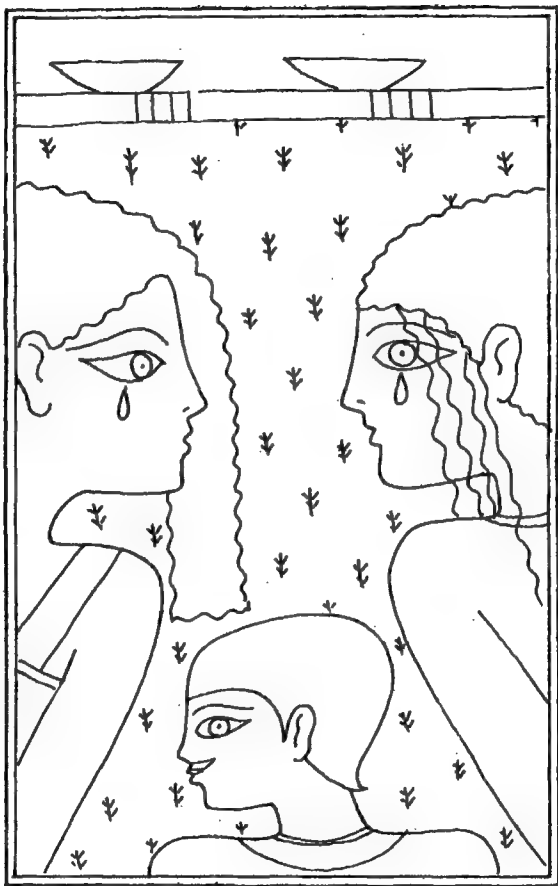
- مولاي ، ما فعلت فى الاثنتين إلا ما يفرضه الواجب على الجندى . فلا أطلب ثمنا مقابلها . ولكن لى أمنية ، أتقدم بها ، طامعا فى رحمة مولاي .
فقال الملك :

- وما هى أمنيتك أيها القائد ؟ .

فقال ددف :

- إن الآلهة يامولاي - لحكمة تعلمها - ارتفعت بقلبي إلى سماوات مولاي الملك ، فتعلق بأقدام مولاتي الأميرة مرى سى عنخ . فنظر إليه فرعون نظرة غريبة ، وسأله :
- لكن ، ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة ؟ .

فارتبك ددف ، وخيم عليه صمت ثقيل . فابتسم فرعون وفهم . وكان فرعون راضيا . وكأنما أراد أن يلهو قليلا ، فأرسل فى طلب الأميرة مرى سى عنخ . ولبت الأميرة نداء والدها . ولما رأت المائل بين يديه ، خفق قلبها ، وتولأها الحياء والارتباك . فنظر إليها فرعون بحنان . وقال بلهجة رقيقة ، لم تخل من السخرية :
- أيتها الأميرة . يزعم هذا القائد أنه غزا حصنين : سور سيناء ، وقلبك ! .



فقال دد ف بتوسل :

- مولاي ... ؟ ! .

وأعياه الكلام فسكت مرتبكا . ورأى فرعون قائده تخونه
شجاعته . ورأى ابنته يتملكها الحياء والارتباك ، فقال قلبه إليها ،
ونادها إلى جانبه ، ثم نادى دد ف . فاقترب الشاب في تهيّب شديد .
ووضع الملك يد الأميرة على يده ، وقال بصوته الجليل :
- أبارككما .. باسم الآلهة جميعا .

٢٤

على أثر انتهاء المقابلة الفرعونية السعيدة ، استقبل دد ف فترة من
الزمن ، مقدارها اثنتا عشرة ساعة . توالى فيها الحوادث الجسام
الغريبة ، التى تزلزل النفوس وتحطم العقول .

خرج دد ف من الحضرة الفرعونية ، فطلب مقابلة الوزير خعمين
وعرض عليه موضوع المرأة المصرية . فأخلى الوزير سبيلها ، وأحضرها
إلى القائد . فقال لها دد ف :

- أهنتك ياسيلى . رُدّت إليك حريتك . ولأن الوقت متأخر ،
فستترلين ضيفة علىّ إلى الغد .

فأمسكت بيده ، ولثمتها بامتنان عظيم . وانحدر دمعها على خديها ،
واصطحبها معه إلى عربته .

وكان ينتظره الضابط سنفر ، فأخبره أن وليّ العهد ينتظره حالا فى
قصره . فذهب إليه ، وقال له الأمير :

- إني أحتاج إلى إخلاصك أيها القائد . فنقد ما تؤمر به ، ولا تدع للتردد سيلا إلى قلبك .

أيها القائد . لا تسرح جيشك ، بل ابقه معسكرا خارج أسوار منف . وانتظر أوامري عند الفجر . ونقد لها دون تردد ودون نقاش . فأنحنى ددف ، وغادر الحجرة متحيرا من أمره . وعاد قلعا إلى العربة التي بها السيدة . وانطلقت العربة إلى بيت شارو . ووصلت العربة إلى البيت . فأدخل السيدة حجرة الضيوف . وصعد ، فتلقته أمه زايا بذراعين مفتوحتين ، وإنهالت عليه بالقبل ، وضمتته إلى صدرها بشدة ، ولم تتركه إلا عندما انتزعه بشارو وهو يقول :

- أهلا بالابن الظافر ، والقائد الباسل .

وقبله في خدّه وجهته . ثم عانق ددف أخويه خنى ونافا ، وسلم على زوجة الأخير مانا ، وكانت تحمل رضيعا ، سموه على اسمه .. ددف الصغير . فحمله ددف بين ذراعيه ، وقبل شفثيه الرقيقتين . ووجد الفرصة سانحة لإعلان خطبته السعيدة ، فقال لنافا :

- لن تكون أبا وحلك يانافا .

فانتبه الجميع ، وصاح نافا بفرح :

- صحيح اخترت شريكك أيها القائد ؟ .

فأحنى ددف رأسه قائلا :

- نعم .

فنظرت أمه إليه بعينين تألق فيهما الفرح ، وصاحت تسأله :

- صحيح ياددف ؟ ومن هي ؟ .

فقال الشاب بهدوء وفخار :

- صاحبة السمو مري مى عنخ .

فصاح الجميع : مرى سى عنخ .. ابنة فرعون ؟ .
وملكت الجميع دهشة عظيمة . واهترت قلوبهم بسعادة طاغية .
وقصّ عليهم ددف قصته . وذكر نعمة فرعون عليه .

* * *

وتذكّر ددف السيدة التى تركها فى حجرة الضيوف . فقام من
فوره ، وذكر لهم بسرعة قصتها ، وقال لأمه :
- أرجو أن تكرميها يا أمى ، إلى أن تغادر بيتنا .
فتزلت أمه معه للترحيب بها . ودخلا إلى حجرة الضيوف معا ،
وأمه زايا تقول :

- أهلا بك سيدتى .. لقد حللت فى بيتك ..
ونفضت السيدة من جلستها ، وأحنت قامتها ، ثم مدّت يدها إلى
مضيفتها زايا . فالتقت عينا المرأتين لأول مرة . وبسرعة البرق نسيئا
تبادل التحية ، ونظرت كل منهما إلى الأخرى بغرابة ، واتسعت عينا
المرأة الغريبة ، وصاحت فى دهشة جنونية : زايا .. !
فتولّى الذعر زايا ، وأخذت تنظر إليها بذهول .
وأخذ ددف يقلّب وجهه بينهما فى حيرة ، ويعجب للمرأة التى
عرفت أمه ، مع أنها قضت عشرين عاما فى منفاهها . وسألها دهشا :
- كيف عرفت أمى يا سيدتى ؟ .

ولكن السيدة لم تتبّه إليه . ولعلها لم تسمعه . فانتباهها كان مركّزا
فى زايا . وقد ضاقت بسكوته وعدم ردها ، فصاحت بها :
- زايا ! .. زايا .. ألسنت زايا .. مالك لاتكلمين ؟ تكلمى ..
أيتها الخائنة .. تكلمى .. وقولى ماذا فعلت بابنى ! .. أين ابنى أيتها
المرأة ؟ .

ولم تتكلم زايا ، ولا تحولت عيناها عن المرأة الغاضبة . ولكن أعيائها الاضطراب ، ومزقها الخوف ، فجعلت ترتجف واصفر وجهها . فأمسك ددف بيدها الباردة ، وأجلسها على أقرب مقعد . ثم تحول إلى المرأة في غضب ، وقال لها بحفاء :

- كيف تأتيك الجرأة ، وتوجهين مثل هذا الكلام إلى أمي ، وأنا أكرمتك وأنقذتك من عذاب الأسر ؟ .

وكانت المرأة تلهث بشدة ، وأرادت أن تتكلم ، فما استطاعت إلا أن تشير إلى أمه ، وكأنما تقول له .. سلها هي ! .

فانحنى الشاب إلى أمه بخنوع ، يسألها بركة :

- أمي .. هل تعرفين هذه السيدة ؟ .

فلم تقل زايا شيئا . ولم تطلق المرأة سكوتها . وعاودها غضبها وقالت :

- سلها .. هل تعرف رده ديديت زوجة رع ؟ . سلها .. هل تذكر

المرأة التي هربت منها ، حاملة طفلها الصغير ، من عشرين عاما ؟ تكلمي يا زايا .. قولي له كيف خطفت ابني الرضيع ، وتركتني في الصحراء ، وأنا والدة في نفس اليوم ، حتى عثر بي البدو الوحوش ، وأخذوني أسيرة ، وساموني سوء العذاب والأسر عشرين عاما . تكلمي يا زايا .. وقولي ماذا فعلت بطفلي .. تكلمي ..

فاشتدت الحيرة بددف . وهمس في أذن أمه متألما :

- أمي .. سامحني . أنا الذي أحدثت لك هذا العذاب . أنا الذي

جئت بهذه المرأة التي أفقدها الأسر عقلها . سامحني يأمي . سأطرد هذه المرأة .

فأمسكت بيده وتمتعه . فسألها بتوسل :

- ولماذا لا تتكلمين يا أمى ؟ .. هل تعرفين هذه المرأة ؟ .

فقالت زايا فى أنين مؤلم :

- لا فائدة .. تحطمت حياتى .

- فدتك نفسى يا أمى . لا تقولى هذا .

- حياتى تنهار دفعة واحدة ..

- أمى .. أنا بجانبك .. أدفع عنك كل سوء .

وتحوّل غاضبا إلى المرأة .. ولكن هذه لم تَلِنْ . وظلت تسأل زايا :

- قولى لى أين ابنى .. أين ابنى ؟ .

وبهتت زايا ، ثم وقفت بحالة عصبية ، وصاحت بالمرأة :

- أنا لم أكن غادرة يارده ديديت . لقد سهرت عليك ذلك اليوم

العصيب . ولكن البدو هاجمونا . فلم يكن أمامى إلا الهرب . إذ

خفْتُ على طفلك من أذاهم . فحملته على ذراعى ، وجريت به

كالمجنونة . ثم عنيت به ، وأعطيته حياتى . ونفعه حى . فنشأ

رجلا تفخر به الأمم . وهاهوذا يقف أمامك . فهل رأيت شابا

مثله ؟ .

تحوّلت رده ديديت إلى ابنها ، وأرادت أن تتكلم . فلم يطاوعها

لسانها . ولم تستطع إلا أن تفتح ذراعها ، وترتمى عليه ، تتعلق بعنقه ،

وشفتها ترتعشان « ابنى . ابنى » .

وكان الشاب ذاهلا ، كأنه يرى حلما عجيبا . ينظر تارة إلى زايا

بوجهها الذى أصبح مثل وجوه الموتى ، وينظر تارة أخرى إلى المرأة

المتعلقة به ، والتى تضمه إليها بصدرها الذى يضطرب بشدة . ورأت

زايا استسلامه ، وشاهدت فى عينيه نظرة حنو وعطف ، فتأوهت

بائسة ، وأدارت ظهرها ، وفرت من الحجرة كاللدجاجة المذبوحة



أراد ددف أن يتحرك ، ولكن ازداد تعلق المرأة به ، وتوسلت إليه
قائلة :

- ابني .. ابني .. هل تترك أملك ؟ .

تجمد الشاب في مكانه . وألقى على وجهها نظرة طويلة . فخفق
قلبه ، وفاضت نفسه حنانا ، ومالت رأسه نحوها بغير شعور ، حتى
ضغطت شفتاه على خدها .

وتهدت المرأة بارتياح ، واغرورت عيناها باللموع ، ثم انتحبت
باكية . فأخذ يهدئ من روعها ، وأجلسها وجلس إلى جانبها . فنظرت
إليه ، وقالت :

- قل لي .. أمي .

فقال لها بصوت خافت : أمي .

ثم قال بحيرة :

- ولكني لا أكاد أفهم شيئا .

فسردت عليه قصتها الطويلة . وحدثته عن ولادته ، وما أحاطها
من التنبؤات الخطيرة ، وما أعقبها من الحوادث الجسيمة ، إلى هذه
اللحظة السعيدة ، التي رُدَّت فيها روحها ، بعد أن رأتها حيا سعيدا
جليلا

٢٥

ساعت الأقدار بشارو إلى سماع قصة رده ديدبت عن غير قصد .
فقد أراد أن يرحب بها بنفسه ، مبالغة في إكرامها . ونزل إليها ،
فصادف أن وصل ، لحظة خروج زايا زوجته تجرى كالجحش . فأخذه

العجب ، واستولت عليه الحيرة ، واقترب من باب الحجرة ، فسمع صوت رده ديديت وهي تتحدث في حالة عصبية . واستمع - كما استمع ددف - إلى قصتها من بدايتها إلى نهايتها .

فانسحب من مكانه ، وصعد إلى حجرته ، وهو لا يدرى ماذا يفعل . أضناه التفكير ، وهو يروح ويحي ، مضطرب النفس ، مشتت البال ، مهتاج الخاطر ، حتى أخذ يحدث نفسه بصوت مسموع : -
بشارو أيها الشيخ البائس .. الآلهة تمتحنك بمحنة .. وأى محنة ! .

ددف الجميل العزيز ، الذى احتضنته وهو طفل رضيع ، ورعيته وربيته أحسن تربية ، ويسرت له سبل النجاح حتى وصل إلى هذه المكانة .. وأعطيته قلب الأب وعطفه .. وتقبلت منه محبة الابن وبرة .. ددف هذا ، عدو لفرعون ، سينهى عرشه ، ويسلب حق ولى عهده .

كيف يكون هذا ؟ كيف يصلق هذا ؟ .

وترداد حالة الرجل سوءا .. ويمضى يتحدث في حزن وألم :
- ددف أيها العزيز .. لتكون ابن العامل كاردا أو ابن كاهن رع العظيم .. فإنى أحبك .. حبي لخنى ونافا .. وأنت لم تعرف أبا سوى .

ثم يمضى :

- وشارو .. الذى لم يؤذ إنسانا فى حياته .. هل تكون أنت ياددف العزيز أول ضحية تمتد إليها يده بالأذى ؟ .
ويشند الكرب بالرجل ، ويتمزق قلبه ، ويكاد ينفجر عقله ، فيصيح :

— لماذا كل هذا العذاب ؟ لماذا لا تطبق شفتيك ، وكأنك لم تسمع شيئاً .

وما يلبث الرجل أن يتنفّض ، وتنبعث ثورة من داخله ، فينقلب على نفسه ، ويصرخ :

— لا .. إن قلبي لا يستريح .. إنه قلب بشارو مفتش الأهرام وخادم الملك .. بشارو الذى يعبد الواجب عبادة .. كيف يسكت على هذه الحقائق الخطيرة .. وهو خادم فرعون الأمين ؟ ! .
ويسقط إعياء .. ويشد التمزق فى قلبه وعقله :
« أيهما أولى . بالاتباع .. الواجب أم تجنب الأذى ؟ » .

* * *

ثم يغادر بشارو حجرته بخطوات ثقيلة . ويهبط إلى حديقة البيت . ويمر فى طريقه بحجرة الضيوف ، ويرى ددف ، فى موقفه . وينظر الشاب إلى ثياب أبيه الرسمية نظرة غريبة ، ويسأل بصوت ضعيف :

— إلى أين أنت ذاهب الآن يا .. أبى ؟ .

— إلى واجب لا يؤجل يابنى .

ثم يركب عربته ، ويقول للسائق :

— إلى القصر الفرعونى .

وانطلقت العربة فى طريقها ، وقال بشارو لنفسه وهو يتنهد أسفاً محزوناً :

— عرفت الواجب بمشقتة ولذته .. وهأنا أُنَجَّرعه مرّاً لا لذة فيه ، كالسم الزعاف .

قصّت رده ديدت قصتها الحزينة ، وددف جالس إلى جانبها
يستمع إلى صوتها المتهدج ، ويديم النظر إلى عينيها اللامعتين الحبيبتين ،
وقلبه يكاد يتمزق من الألم والحنان والإشفاق .

وحين انتهت من سرد مأساتها ، سألت ابنها :

- من كاهن رع يابنى ؟ .

- شودا رع .

- ياأسفا .. قضى على أهلك بلاشك .

- أنا فى ذهول يأمى .. بالأمس كنت ددف بن بشارو . واليوم أنا

شخص جديد ، يحفل ماضيه بالفواجع . ولدت من أب قتيل وأم

بائسة ، عانت ذل الأسر عشرين عاما ! باللعجب . كان مولدى

شؤما ، فعذرة يأمى .

- لا تحمّل نفسك الطاهرة وزر الشيطان الرجيم ، يابنى . وفكر فى

الخلاص . فقلبى غير مطمئن .

- ماذا تعنين يأمى .

- لا يزال الخطر يحيط بنا يابنى .

- باللعجب ! أيكون دذف عدوا لفرعون ؟ ويكون فرعون الذى

يهنى كل يوم من نعمه وأفضاله ، هو الذى قتل أبى وعذب أمى ؟ .

- لن يتوقف العجب أبدا فى الدنيا يابنى . فى الخلاص . لا أريد

أن أفقذك ، وقد وجدتكَ بعد غياب السنين .

- إلى أين يأمى ؟ .

- بلاد الرب واسعة

- لا تخافى يأمى ، سوف يشفع لى عند الملك إخلاصى وخدمانى للعرش .

- لن يشفع لك شىء ، إذا علم أنك أنت الذى خلقتة الأقدار ليرث عرشه .

- أرثُ عرشه ؟ يالها من نبوءة زائفة .

- أضرع إليك يابنى ، أن تطيعنى ليطمئن قلبى .

فأخذها بين يديه ، وضغط عليها بحنو ، وقال :

- عشت عشرين عاما لا يعلم أحد بسرى . ولا أنا نفسى .

فالنسيان طواه . ولن يُبعث مرة أخرى .

- لا أدرى يابنى .. لماذا أنا خائفة ..

وقبل أن تكمل الأم كلامها ، جاء الضابط سنفر يطلب لقاء ددوف

فى الحال . فخرج إليه . وبدون تحية أو سلام ، قال سنفر بسرعة :

- سيدى القائد .. لقد أطلعتنى المصادفات على حقائق خطيرة ،

تنذر بشر مستطير .

فاستوضحه القائد ، فقال :

- كنت واقفا فى المخزن ، تحت فتحة الحائط المطللة على الحديقة ،

ووصل إلى مسمى صوت رئيس حجاب ولى العهد . وكان يحدث

شخصا غريبا همسا . فلم أتبين حديثه . ولكنى سمعت جيدا ، فى

ختام حديثه ، دعاء للأمير خعوف ، الذى سيصبح فرعون مصر عند

الفجر ! .

فانفض جسمى هولا ورعبا . واعتقدت أن جلالة الملك انتقل إلى

جوار الإله أوزوريس . فأسرعت إلى ثكنات الجند ، فوجدت الضباط

يتسامرون كهادتهم . فظننت أن الخبر المشوم لم يصلهم . فتوجهت

بعرنتى إلى القصر الفرعونى ، فوجدت القصر هادئا ، وأنواره تتلألأ ،
والحراس يروحون ويحيثون فى هدوء واطمئنان . وتأكدت أن رب
القصر يتمتع بالحياة والصحة . فساورتى الشكوك . فجئت على عجل
إليك .

— وما الذى تشك فيه ؟ .

صمت سنفر ، وقفز إلى ذهن ددف . أمر الأمير خعوف إليه ، بعدم
تسريح الجيش وانتظار أوامر منه عند الفجر وتنفيذها بلا نقاش . وعلى
الفور ، التقت وسائوس ددف بوسائوس سنفر ، وقال ددف :
— أخشى أن يكون الملك فى خطر .

— فما العمل ياسيدى القائد ؟

— العمل الحكيم ، أن أختار بضع عشرات من الضباط ، الذين
أثق فى شجاعتهم . وستكون من بينهم ياسنفر . ثم نقصد متخفين إلى
وادى الموت ، ونسبى ونقيم كمينا هناك لأى خيانة .

ولم يضع ددف وقتا . ولكنه ، بالرغم مما هو فيه من أمر خطير ، لم
يستطع أن ينسى أمه . فصعد بها إلى جناح نافا ، وعهد بها إلى زوجته
مانا . وعاد إلى سنفر ، وركب معه عربته إلى معسكر الجند خارج أسوار
منف .

٢٧

طلع الفجر ، فدبَّت الحياة مرة أخرى فى هضبة الأهرام المقدسة .
وفُتِح باب الهرم ، وخرج منه شبهان ، وكان كل منها يتلفح بدثار
سميك ، أشبه بعباءة الكهنة . قال أقصر الرجلين :

- أنت ، يامولاي ، تجهد ذاتك العلية إجهادا قاسيا .

فقال الملك :

- بل يجب أن أضعف مجهودي يا خعمين . فما تبقى من العمر إلا أقصره .

وصعد الملك إلى العربة الملكية ، وركب بعده الوزير ، وقبض على اللجام ، وسارت الجياد حتى قطعت أرض الهضبة ، واجتازت حدودها إلى وادي الموت ، الذي يؤدي إلى أبواب منف . وكانت الظلمة ماتزال حالكة ، والسماء ملأى بالنجوم .

وفجأة ، صهل أحد الجوادين بشدة ، وقفز عاليا ، ثم سقط على الأرض ، فتوقفت العربة عن المسير . وهمّ الوزير بالتزول ليرى ما أصاب الجواد . ولكنه قبل أن يتحرك ، صرخ متألما ، وصاح :

- الحذار يامولاي . لقد أصيبت .

فأدرك فرعون أنّ شخصا أصاب الحصان ثم الوزير . وظنه واحدا من قطاع الطرق ، فصاح بصوت شديد :

- سلم نفسك أيها الجبان .. أنا فرعون .

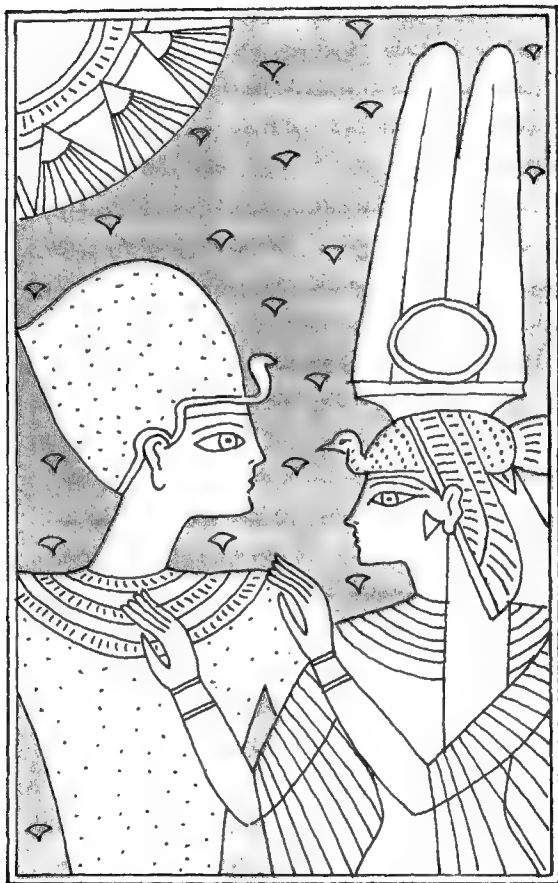
ولكنه رأى شعبا قادمًا من بعيد كالسهم ، وهو يصيح :

- اختبئ يامولاي خلف سور العربة .

ثم رآه يقف في طريق شيخ آخرات من الجهة الأخرى . واشتبك الاثنان في قتال عنيف . وتبادلا طعنات قاتلة بسيفيهما ، ثم صرخ أحدهما وسقط على الأرض قتيلًا . ثرى من الذي سقط : العدو أم الصديق . ولم تطل حيرة الملك ، وسمع صوت المنقذ يقول :

- هل مولاي بخير ؟

فأجابه :



- نعم أيها الشجاع . ولكن وزيرى أصيب .
وسمع الملك صلصلة سلاح وراء العربة . فالتفت بسرعة فرأى
فريقين من الجنود يشتبكان فى قتال عنيف . ورأى الشيخ الشجاع ينضم
إلى فريق ، ومحارب معه ضد الآخر . فوقف الملك الأعزل يشاهد
المعركة ، وهو كاظم غيظه .

ورجحت كفة رجال الملك ، وتساقط أعداؤهم . وألقت الرعب
فى قلوبهم ، كوكبة من الفرسان تحمل المشاعل ، وتهتف باسم الملك .
فزلزلوا زلزالا شديدا ، وأمعن رجال الملك فيهم قتلا ، ولم يبقوا منهم
على أحد .

وأحاطت الفرسان بعربة الملك . وأضاءت مشاعلهم الوادى .
فظهرت جثث القتلى . وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك ،
وقد سالت منهم الدماء الزكية .
وتقدم رئيس الفرسان من عربة الملك ، وقال وهو يبحو راكعا :
- كيف حال مولانا الملك ؟

فنزول فرعون على رجليه وقال :
- فرعون بخير ، بفضل الأرباب ، وشجاعة هؤلاء الرجال .
وكيف أنت يا خعمين .

- بخير يا مولاي .. إصابنى فى ساعدى وليست خطرة . فلنصل
جميعا شكرا لبتاح الذى أنقذ حياة الملك .

ونظر الملك فيما حوله ، فرأى القائد ددف ، فقال له :
- أنت هنا أيها القائد ددف ؟ كأنك حريص على أن تدين الأسرة
الفرعونية جميعها .

فانحنى الشباب فى احترام عظيم ، وقال :

- حياتنا جميعا فداء لمولاي .

فسأل الملك :

- ولكن كيف حدث هذا ؟ أكاد ألمح خيانة في الظلام ، قضى عليها إخلاصكم وشجاعتكم . دعونا نتعرف وجوه القتل أولاً .. ونبدأ بالذى سدد إلينا سهما طائشا .

وسار في اتجاه العربة ، وددف وسنفر ورئيس الفرسان يسرون بين يديه بالمشاعل . فتعثروا بالجثة على بعد قريب . وكان صاحبها منبطحا على وجهه ، والسهم القاتل في جنبه الأيسر ، ويثن أنينا أليما . فاضطرب الملك لسماع أنينه ، وسارع إليه ، وأماله على ظهره ، وألقى نظرة قلقة ، وصرخ لما تبين وجهه :

- خعوف .. ابني !! .

ونسى فرعون جلاله ، ونظر فيمن حوله ، كأنه يستغيث بهم . وأمعن النظر ثانية في وجهه ، وقال بحزن وفزع :

- أنت الذى حاولت الفتك بي ؟ .

ولكن الأمير كان يعانى الترع الأخير ، ويته في غيبوبة الاحتضار . فلم يتبته إلى العيون الناطرة إليه ، وجعل يئن أنينا موجعا ، وصدره يعلو وينخفض بشدة .

وكان فرعون ينحنى على ابنه المحتضر ، وينظر إليه بعينين جامدتين . وكانت نفسه مضطربة ، تعترك فيها العواطف المتناقضة . وظل يديم النظر إلى وجه ابنه المعلتب الذى ذهب عنه الجلال ، وسكتت حركة جسمه إلى الأبد .

بعد زمن ليس بالقصير ، استعاد الملك ثباته ، واعتدلت قامته ، والتفت إلى ددف ، وسأله بصوت غريب :

- أخبرني أيها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه المأساة .
وأخبر ددف مولاہ بصوت متهدج حزين ، بما أبلغه به الضابط
سنفر ، وبالشكوك التي وسوست في صدرهما ، والكمين الذي دبراه
لإنقاذ مولاها .

٢٨

عاد الملك وصحبه إلى القصر الفرعوني . وأحسّ بضعف
وإرهاق ، فأوى إلى مخدعه ، واستلقى على فراشه . وانتشر الخبر
الأسيف في رحاب القصر ، فاضطربت القلوب ، وزلزلت له الملكة ،
فلحقت بزوجها ، فوجدته نائماً أو كالنائم . فلمست بأناملها جبينه ،
ووجدته ساخناً ، فهمست بصوت خافت :
- مولاى .

وانتبه الملك إلى صوتها ، وفتح عينيه في هياج شديد ، وجلس في
فراشه بعنف ، ونظر إليها بعينين يتطايرون منها الشرر ، وقال بصوت
جنونى لم تسمعه من قبل :
- أتبكين القاتل الأثيم ؟ .

فقالت بذلة :

- بل أبكى حظى الثعس يامولاى .

فصاح بها بغضب :

- ولدت لى مجرماً . فرأت الحكمة الإلهية أن توقعه فى هلاكه .
فالعرش لم يُخلق ، ليجلس عليه المجرمون .

- الرحمة يامولاي ، رحمة بقلبي وقلبك .

فهز رأسه هزات جنونية وقال :

- تترحمين عليه ؟ .

- يحق لنا أن نكيه يامولاي . ألم يخسر الدنيا والأبدية ؟ .

فأمسك الملك رأسه ، وقال بذهول :

- رياه .. ما هذا الجنون الذي يدور في رأسي ؟ ماهذه الضربات

التي تتوالى على رأس فرعون ؟ كيف يستطيع هذا الرأس ، أن يحمل

تاج المصريين بعد الآن ؟ إني أحس بالنهاية . فأتوني بأبنائي وبناتي ،

وأصدقائي جميعا .. ونادوا خعمين ومرائب وأربو وددف .

ولبي الجميع النداء ، وحضروا سراعا واجمين صامتين . ودخلوا

مخدع الملك ، ووقفوا صفين حول فراشه . وكان الملك مايزال مهتاجا

عنيفا ، ولمح طبيبه كاري ، فنظر إليه بعنف ، وقال له :

- لماذا أتيت أيها الطبيب ولم أطلبك .

جزعت النفوس من هياج الملك واضطراب أعصابه . أما الطبيب

كاري ، فقد ابتسم برقة وقال :

- مولاي يحتاج لجرعة .

وقاطعه الملك صائحا :

- دع مولاك وابعد عن وجهه .

فتقدم خعمين من فراش مولاه ، وقال :

- هديء روعك يامولاي . هل يريد مولاي أن أحضر له كأسا من

الماء ؟ .

وخرج الوزير من الحجرة ، قبل أن يأذن الملك له . وأعطاه

الطبيب كاري كأسا من الماء مذابا فيه دواء مسكن . فحمله الوزير إلى

مولاه . وتقبله الملك من يد وزيره ، وشربه حتى الثمالة . وجاء أثره
سريعا . فهدأت حركات الملك ، وعاودت عينيه نظراتهما المألوفة ،
ورُدَّ إلى وجهه لونه الطبيعي . ولكن بدا عليه هزالٌ وضعفٌ شديدان .
وتهدَّ الملك تنهدا عميقا ، ونظر إلى الجمع الملتف بفراشه ،
وقال :

— أيها السادة : كنت حاكما جبارا ، ولكني لم أغفل لحظة في
حياتي عن الخير والإصلاح . وأردت ألا ينتهى انتفاع العباد بي بانتهاء
حياتي ، فكتبت رسالة مطوّلة في الطب والحكمة ، سيدوم الانتفاع
بها . وامتد العمر بي كما ترون . وأرادت الآلهة أن تبليني ببلاء شديد ،
لحكمة أجهلها . واختارت ابني وسيلة لها . فتعجّل ولاية العرش ،
وضاق بأن يبقى وليا للعهد وقد بلغ الأربعين ، ورأى في صحتي وحياتي
حائلا دون رغبته . فانقلب عدوّا لي ، وتربّص في الظلام يريد
اغتيالي . ولكن كُتبت لي النجاة . ودفع الابن التعس ثمنًا لهذه
الساعات القليلة التي امتدّها عمري .

فقال الجميع برجاء :

— أطال الله بقاء الملك .

فرفع الملك يده ، وساد السكوت ، وقال :

— أيها السادة .. حلت النهاية ، ودعوتكم لتسمعوا وصيتي
الأخيرة .

ثم التفت إلى أبنائه يتفرسهم واحدا واحدا ، ثم قال :

— أراكم تكتمون قلقا خفيا . فقد مات ولي العهد ، والملك
يحتضر ، وكلكم يطمع في العرش ، ويرغب فيه .

فقال الأمير رعباوف ، وكان أكبر الأمراء سنا :

- أبني ومولاى . ما تشاؤه هو الإرادة المقدسة ، التى نلتزم بطاعتها .

فابتسم الملك ابتسامة حزينة ، وقال :
- أحسنت القول يارعباوف . والحق أقول لكم .. فى هذه الساعة
الرهيبه ، أجد من نفسى القوة العظيمة ، لأسمو فوق العواطف البشرية
وأحسّ بأن أبوتى للناس فوق أبوتى للأبناء .
وعاد يتفرّس وجوه أبنائه ، واستطرد :

- يظهر أن كلامى لا يلقى منكم الإعجاب . والحق ، أنا لا أنكر
أبوتى لكم ، ولكنى أجد من هو أحق بالعرش منكم . هو شاب علت
به همّته إلى القيادة قبل الأوان ، وحققت شجاعته نصرا عزيزا
للوطن ، وأنقذت بطولته حياة الملك من الحيانة . ولا تقولوا كيف
يتولّى العرش من لا يجرى فى عروقه دم الفراعين . فهو زوج الأميرة
مرى سى عنخ ، التى يجرى فى عروقتها دم الملك والمملكة معا .
فبلدت الدهشة على وجه ددڤ ، وتبادل ومرى سى عنخ نظرات
الدهشة . وفوجئ الأمراء ورجال الدولة مفاجأة ألجمت ألسنتهم .
وكان الأمير رعباوف أول من خاطر بتمزيق هذا السكون ،
فقال :

- مولاى ، إنقاذ حياة الملك واجب على كل إنسان . فكيف يكون
جزاؤه العرش ؟

فقال الملك بلهجة صارمة :

- أراك تشعل نار العصيان ، وكنت منذ حين تتغنّى بأناشيد
الطاعة . أيها الأبناء ، أنتم أمراء المملكة ، وسيكون لددڤ العرش .
هذه وصية فرعون الأخيرة .

وساد صمت رهيب ، لم يجرؤ أحد على تعكيره ، حتى دخل
رئيس الحجاب وسجد للملك ، ثم قال :
- مولاي ، مفتش الأهرام بشارو يرجو أن تسمحوا له بالمثل بين
يديكم .

فقال بشارو :

- دعه يدخل . فهو منذ الآن ، من آل بيتي .
ودخل بشارو ، بقامته القصيرة ، وجسمه المتهلّل ، وسجد بين
يدى فرعون ، ثم أذن له الملك بالكلام . فقال :
- مولاي ، أردت المثل بين يدى جلالتك ليلة أمس لأمرهام ،
ولكن أتى بجيئى بعد ذهاب مولاي إلى الهرم . فاضطرت للانتظار على
جزع حتى الصباح .
فسأل فرعون :

- وماذا وراءك ياأبا ددف الباسل ؟
فقال الرجل بصوت أشد خفوتا ، وهو ينظر إلى الأرض :
- مولاي ! لست أباً لددف ، ولا ددف ابناً لى .
فعجب فرعون لإنكار بشارو ، وقال بهكم :
- بالأمس تنكّر ابن لأبيه ، واليوم يتنكّر أب لابنه ! .
فقال بشارو بتألم وحزن :
- مولاي ، الآلهة جميعا تعلم أنى أحب هذا الشاب محبة الأب
لابنه . ولكن إخلاصى للعرش أكبر .

فزاد عجب الملك ، وبدأ الاهتمام على وجوه الحاضرين خاصة
الأمراء ، الذين تمنّوا للشباب شراً يتقدّم من وصية الملك . وسأل
الملك مفتش أهرامه :

- ماذا تعنى أيها المقتش ؟ .

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجرة :

- مولاي .. ددف هذا ابن كاهن رع السابق .. منرع .

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة ، وتمتم في ذهول وروحه تسبح في

ظلمات الماضى البعيد :

- رع ! .. منرع .. كاهن رع .. ! .

وكان المعارى مريب أكثر تذكراً لذلك اليوم ، فقال بغرابة :

- ابن منرع ؟؟ ! هذا بعيد عن التصديق يامولاي . لقد مات منرع

وقُتِل طفله فى ساعة واحدة .

فتذكر فرعون ، وارتجف قلبه المهالك ، وقال :

- نعم لقد ذُبح ابن منرع على فراش ولادته . فإ هذا الذى تقول

أيها الرجل ؟ .

فقال بشارو :

- مولاي ، لا علم لى بالطفل الذى ذُبح . وكل ما أعلمه أثنى

بالمصادفة ، أو لحكمة يعلمها الرب ، فكان امتحانا لقلبي الذى يتعلق

بهذا الشاب أيما تعلق .

ثم روى بشارو على مولاه ، وعيناه تذرفان بالدموع ، قصته مع

زايا وطفلها الرضيع ، من مبتدأها إلى الساعة الرهيبة ، التى وقف

يسترق فيها السمع إلى قصة رده ديديت الغربية .

واستولت الدهشة على الحاضرين ، ولعلت أعين الأمراء ببريق أمل

خاطف . أما الأميرة مري سى عنخ ، فقد اتسعت عيناها هلعاً ورعباً ،

وركزت بصرها على وجه أبيها .

والتفت الملك ، بوجهه الشاحب ، إلى ددف وسأله :

- أصبح .. ما يقوله هذا الرجل ، أيها القائد ؟ .

رد ددف بشجاعته المعهودة :

- نعم .. يامولاي .

فنظر فرعون إلى خعمين ، ثم إلى أربو ، ثم إلى ميرثيب ، يستغيث بهم من هول هذه العجائب ، ثم قال :

- يالعجائب الأقدار ! .

وألقى الأمير عباوف على ددف نظرة نارية ، وقال وهو يتشفى :

- الآن ظهر الحق ! .

ولكن فرعون لم يتبته إلى قوله ، واستطرد يقول بصوت حالم خافت :

- حدث منذ أكثر من عشرين عاما ، أن أعلنت حرباً شعواء ،

تحديت بها الآلهة .. فجردت جيشاً ميرت على رأسه بنفسى لقتال طفل رضيع .. وظننت أنى نفذت إرادتى وأعليت كلمتى .. وإذا بالحقيقة اليوم تهزأ بظنى وباطمثنائى .. وإذا بالرب يصفع كبريائى .. وها أنتم أولاء ، ترون كيف أنى أجزى طفل رع على قتله ولىّ عهدى ، وأختاره خلفاً لى على عرش مصر .. فيالعجائب الأقدار ! .

وأحنى فرعون رأسه ، حتى استند ذقنه على أعلى صدره ، وراح فى تأمل عميق .

وانتظر الأمراء على جزع ، ونظرت الأميرة مرى سى عنخ إلى والدهما بعينين يطل منهما ملاك ، يتضرع ويتوسل . وترددت الأعين بين رأس الملك المنكس ، وبين الشاب ددف الذى وقف فى ثبات عظيم مستسلماً للأقدار .

ونظر الملك إلى وزيره خعمين وقال :

- إلى أيها الوزير بأوراق البردى ، لأكتب حكمتي الأخيرة ، عن
أبلغ عظة تعلمتها من عجائب الأقدار. أسرع فما بقي من العمر إلا
لحظات ..

وأحضر الوزير ملفات البردى ، فوضعها فرعون على حجره ،
وأمسك بالقلم ، ومضى يكتب حكمته الأخيرة . وكانت مرى سى عنخ
جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة . وكُتِمَت الأنفاس ،
فما كان يُسَمَع إلا صريرُ القلم . وانتهى فرعون ، فرمى القلم في إعياء
شديد .

ولكنه ، قبل أن يستسلم إلى الراحة ، نظر إلى ددف ، وأشار إليه .
فاقترب الشاب من فراش الملك ووقف كالتمثال . فأخذ فرعون يده
ووضعها على يد مرى سى عنخ ، ووضع يده النحيلة على يديهما ،
ونظر إلى القوم وقال :

- أيها الأمراء والوزراء والأصدقاء .. حيوا جميعا مَلِكِي الغد .
فلم يتردد أحد . واتجهوا جميعا بأنظارهم إلى مرى سى عنخ
وددف ، وأحنوا الهامات .

ونظر فرعون إلى سماء الحجرة لا يحرك ساكنا ، واكتسى وجهه بنور
سماوى ، وصعدت روحه إلى السماء .

* * *

الأعمال الأدبية

للكاتب الكبير الأستاذ
نجيب محفوظ

نصدها تباعاً

ميسرة

ليقرأها الناشئون بفهم تام

واستمتاع بأحداثها كاملة

وسعادة بتجاوز قراءة القصة ..

.. إلى قراءة الرواية !

نجيب محفوظ

الرواية التالية

كِفاح
طَيِّبَة

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٢٢٢٦
التعليم الدولي : ٩ - ٣١٢ - ١٤٩ - ٩٧٧

مطابع الشروحة

الكتاب : ١٦ شارع جواد حسي - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

شُرُفت دار الشروق ، وحصلت من الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، على حق إصدار أعماله الأدبية للأطفال . وهذا الكتاب هو أول رواية نصّارها لكاتبنا الكبير . وهي أيضا أول رواية صدرت له في عطاءه الوفير المتميز . وجعلنا عنوانها « عجائب الأقدار » بدلا من « عبث الأقدار » .

وقنا بتيسيرها ، وتقديمها وفق المتطلبات التربوية والفنية ، مع الحرص على أن تظل الرواية بنفس بنائها وأحداثها وشخصياتها ، وإلى حد كبير .. لغتها وأسلوبها ، الأمر الذي يجعل الرواية ، بصيغتها هذه ، مشوّقة للناشئين .. يقرأونها بفهم تام ، ويستمتعون بأحداثها كاملة ، ويسعدون أنهم تجاوزوا قراءة القصة .. إلى قراءة الرواية .

وإذا كانت رفعة القراءة عالميا ، لكاتبنا الكبير ، قد اتسعت وتضاعفت بعد حصوله على جائزة نوبل العالمية للأدب ، وأصبحت أعماله تترجم إلى كل لغات العالم .. فإن دار الشروق يسعدنا أن يسهم مشروعها هذا ، في أن تتسع رقعة القراءة عربيا ، لكاتبنا الكبير . وتمتد لتشمل القاعدة العريضة من أجيالنا الجديدة .. ذخيرتنا وعدتنا للمستقبل .
والله ولي التوفيق .

محمد الحام